رابطة العالم الإسلامي

البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة

مسابقة: مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ

# هل كان محمد ﷺ رحيماً؟

تأليف

محمد حسام الدين الخطيب

# بسم الله الرحمن الرحيم

## وبه أستعين

**المقدمـــة:**

هذا بحث جعلت عنوانه سؤالاً (هل كان محمد ﷺ رحيماً؟) ثم جعلت البحث كله جواباً لهذا السؤال..

وقد قسَّمته إلى أربعة فصول، هي:

- الفصل الأول: مدخل.
- الفصل الثاني: مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ، قبل البعثة.
- الفصل الثالث: تعريف بمحمد ﷺ.
- الفصل الرابع: مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ، بعد البعثة.

ولسوف يلحظ القارئ الكريم، أن الفصول الثلاثة الأولى ما هي إلا مقدمة للفصل الرابع الذي هو مادة البحث وعُظْمه وغايته.

وقد قسَّمت كل فصل من هذه الفصول الأربعة، إلى أفكار محددة.. وجعلت لكل فكرة عنواناً جانبياً يدل عليها.

ثم أنهيت البحث بخاتمة موجزة. وأتبعتها بملخص وبمسرد للمصادر والمراجع.

هذا ولم أنهج في الكتابة الأسلوبَ السردي.. إنما نهجت الأسلوبَ الحواري، لاعتقادي أن في هذا من جذب انتباه القارئ، ما ليس في ذاك. ولما كان الحوار يقتضي شخصيات تديره.. فقد كان عليَّ أن أفترض شخصيات حوارية من نسج الخيال، فكانت شخصيتا (الأب نقولا – والأب ستيفانو) اللتان قدمتهما للقارئ ضمن حيِّزٍ محدد من الزمان والمكان، تقريباً لهما من الواقع.

ولسوف يلاحظ القارئ الكريم أن شخصية (الأب ستيفانو) ليست شخصية جاهلة كارهة مناوئة معاندة.. بل هي شخصية متنوِّرة محبة راغبة، همها الأول معرفة الحق

والاقتناع به، والإعراض عن الباطل ورفضه.. وهي شخصية موجودة في الغـــرب في أوساط المتنوِّرين، لكنها لا تجد لها صدىً في وسائل الإعلام.. بل إن وسائل الإعلام تعمل على طمسها وإخفاء أمرها.

ولهذا لا غرابة إن وجدنا (الأب ستيفانو) متطلعاً بالدرجة الأولى إلى معرفة النصوص الأصلية للإسلام.. حتى يتسنى له أن يكون على بيِّنة من أمره إن هو أراد أن يُقــدِم على خطوة ما في هذا المجال.. وهو إن أعياه التصريح، لم يُعْيِه التلميح[١].. وهذا مـــا كرَّرتُ الإشارة إليه أوائل البحث[٢].

فلئن أصبتُ؛ فبتوفيق من الله سبحانه، ولئن أخطأت، فمن نفسي، وأسأله تعـــالى أن يتجاوز عن خطئي. ولله الفضل والمنة، والشكر والحمد على كل حال.

**محمد حسام الدين الخطيب**

دمشق في ١٧/١/١٤٢٨هـ - ٤/١/٢٠٠٧م

[١] انظر نهاية المقطع الأخير من البحث (الخاتمة).

[٢] انظر ص٧-١٣-١٧-٢٧.

## الفصل الأول

# مدخــــل

منذ سنوات، سكن إلى جواري رجل دين نصراني يـــدعى (الأب نقـــولا)، فسارعتُ آنذاك إلى الترحيب به، وتقديم يد العون والمساعدة له... ريثمـــا تطمـــئنُّ نفسه، وتقرُّ عينه، وتنتظم شؤون حياته في مسكنه الجديد. ولم يكن تصرفي هذا سوى التزامٍ مني بتعاليم الإسلام التي توجب على كل مسلم رعاية حُسن الجوار، تجـــاه أي جار، من أي عِرق كان، ومن أي لون، ومن أي دين.. انطلاقاً من قول رســـول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورِّثه»[1].

ومضت شهور وأعوام... وصار بيني وبين جاري (الأب نقولا) مَودَّة عمادُها الآية الكريمة: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾[2]، وصرنا نتبادل الزيارات في المناسبات والأعياد... ولم نكن نُميتُ تلك الزيارات باللغو والغِيبة والمِراء... بل كنا نحييها بالحديث عن الأديان.. فهو يحدثني عن دينه، وأنا أحدثه عن ديني، فيفيد كلٌّ منا الآخر.. ودام الأمر على هذا المنوال حتى تاريخ ٢٠٠٦/٩/١٢ م، حيث ذاع كلام بابا الفاتيكان (بينيدكت السادس عشر) الذي أساء فيـــه إلى ديـــن الإسلام، وإلى نبي المسلمين! واستشهد فيه بنصوص من العصور الوسطى، أيام كانت الحروب الدينية تشتعل بين النصارى والمسلمين بفعل مثل هذا الكلام الذي جاء فيه ما مُلخصه: «إن الإسلام انتشر بالسيف، ونبي المسلمين لم يأت بغير الســـيف». وهـــي

---

[1] صحيح البخاري: الحديث رقم /٥٦٦٨-٥٦٦٩ – سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني الحـــديث رقـــم /٣٥٦.

[2] المائدة /٨٢.

نغمة قديمة كان يروِّج لها مدبّرو الحروب الصليبية، كلما عزموا على إشعال نار حرب جديدة[1].

وضجَّت وسائل الإعلام بنقل كلام بابا الفاتيكان، وردود الفعل عليه...

* * *

وصادف أن التقيتُ جاري (الأب نقولا) أمام الباب الخارجي للبناء الذي نقطنه، بعد ذيوع كلام البابا بأيام، فبادر كلّ منا الآخر بالتحية، وتصافحنا على عادتنا، وسأل كلّ منا الآخر عن صحته وأحواله... كما هو دأبنا كلما التقينا... لكنه زاد هذه المرة أن سألني قائلاً:

- متى سيبدأ صومكم هذا العام؟.

قلت: بعد ثلاثة أو أربعة أيام، بحسب ظهور هلال أول شهر رمضان القمري.

قال: إذاً سأزورك في أول يوم من أيام رمضان، لأهنّئك ببدء الصوم.

قلت: مرحباً بك.

---

(1) يقول المستشرق الإنكليزي الصهيوني (برنارد لويس) في كتابه (العرب في التاريخ): «وهناك سمة لافتة بصفة خاصة لأنظار المراقب الأوربي، هي تسامح المجتمع الإسلامي بالمقارنة بالمجتمعات الأخرى. فعلى النقيض من معاصريه الغربيين نادراً ما شعر المسلم في العصور الوسطى بالحاجة لفرض عقيدته بالقوة على كل الخاضعين لحكمه».

ويقول المستشرق (دولاسي أوليري) في كتاب (الإسلام في مفترق الطرق): «لقد أوضح التاريخ أن الأسطورة القائلة باجتياح المسلمين المتعصبين العالم، وفرضهم الإسلام على الأجناس المقهورة تحت تهديد السلاح، هي إحدى أكبر الأساطير أو الخرافات الخيالية، التي رددها المؤرخون في أي وقت، سخافةً ومنافاةً للعقل» ص٨ ط. لندن /١٩٢٣م/.

وتقول المستشرقة البولونية (بوجينا غيانا) في كتابها (تاريخ التشريع الإسلامي): «القول أن الإسلام انتشر بالسيف، كلام يكذِّبه التاريخ، ويكذِّبه الواقع» ص١٧ منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط/١٩٨٠م.

هذا في الوقت الذي يقول فيه المستشرق توماس كارليل في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) مشيراً إلى استخدام المسيحيين السيفَ في نشر المسيحية: «عندما حوَّل (شارلمان) السكسونيين إلى المسيحية فإن ذلك لم يكن بالوعظ» ص٨٠.

قال: ألديك برنامج محدد مساء يوم الصيام، حتى أتجنب الزيارة في وقت غير مناسب؟

قلت: برنامجي مساء يوم الصيام هو التالي: أستمع إلى المؤذن وهو يؤذن لصلاة المغرب معلناً بدء الإفطار ذلك اليوم، ثم أتناول تمراتٍ أو شربة ماء بِنيَّة إنهاء صومي وبدء فطري ذلك اليوم، ثم أصلي المغرب، ثم أتناول طعام الإفطار... ثم أنتظر حتى يؤذَّن لصلاة العشاء، ثم أصلّي العشاء، ثم أصلي بعدها صلاة التراويح، وصلاتي كلها في المسجد. ثم أجلس في منزلي للراحة، حيث تكون الساعة قد قاربت التاسعة مساءً بالتوقيت الشتوي.

قال: إذاً موعدنا أول يوم من رمضان، الساعة التاسعة مساءً.

قلت: إن شاء الله.

فاستدرك قائلاً: لكن سيصحبني في زيارتي رجل لا تعرفه، يودُّ التعرف عليك، والحديثَ إليك.

قلت: على الرُّحب والسَّعة، أنت وصاحبك.

ثم ودَّع كلٌّ منا الآخر... وانطلقت أنا إلى وجهتي التي كنت أنتويها، وتابع هو صاعداً درج السلَّم إلى منزله.

* * *

**١- تفنيد فِرية السيف:**

وجاء أول يوم من رمضان من العام الهجري /١٤٢٧/، وعند الساعة التاسعة رن جرس باب منزلي، ففتحت، واستقبلت الضيفين مرحِّباً بهما... وعرَّفني (الأب نقولا) على صاحبه قائلاً:

- صديقي (الأب ستيفانو) من الشعبة الثقافية في السفارة الإيطالية عندنا.

فكرَّرت الترحيب بالضيف... وطفقنا نتجاذب أطراف الحديث... ثم قمت بواجب الضيافة...التزاماً مني بتعاليم الإسلام، وانطلاقاً من قول رسول الله ﷺ: «من كان

يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه»[1]. وفي أثناء ذلك ابتدرني الأب ستيفانو قائلاً بالعربية مَشوبةً بلكنة أجنبية:

– لديّ سؤال أرجو أن أجد جوابه عندك.

قلت: أبشِر، إن كان الجواب في مقدوري.

وأردفت مبتسماً: لعل سؤالك يدور حول عبارات بابا الفاتيكان الأخيرة؟.

فتبسم الأب ستيفانو وهو يقول:

– لا عليك؛ فهذه العبارات وأمثالها، تُلقى بين آونة وأخرى، بوحيٍ من بعض كبار الساسة، ليصلوا بها إلى أهداف خططهم المرسومة خِفية عن أعين الناس.. بدليل أن أصحاب هذه العبارات غالباً ما يتراجعون عنها، عندما يدركون خطرها..

واستدرك قائلاً:

– لكنْ على ذِكر كلام بابا الفاتيكان، أترى تهمة انتشار الإسلام بالسيف، حقاً أم باطلاً؟[2].

قلت: ومن أين لي أن أعرف هذا؟

قال: من النصوص الأصلية التي تأخذون منها دينكم أنتم المسلمين.

قلت: وأين أجد هذه النصوص؟.

قال: من الثابت لدى الجميع، أن نصوصكم الأصلية موجودة في آيات (القرآن) كتابِ دينِكم، وفي الأحاديث الصحيحة التي ترووها عن نبيكم، ثم ما صح من أخبار السيرة النبوية[3] عندكم.

---

[1] صحيح مسلم: الحديث رقم ٤٧.

[2] انظر في تفنيد فِرية (انتشار الإسلام بالسيف) كتاب (رمزية الصليب) للمستشرق رينيه جينو.

[3] هناك محاولتان جديرتان بالاهتمام، في تمييز صحيح أخبار السيرة النبوية، إحداهما للمحدث الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله، بعنوان (صحيح السيرة النبوية) – والأخرى للدكتور أكرم العمري بعنوان (السيرة النبوية الصحيحة). ويضاف إليهما محاولات أخرى مثل (السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة) لمحمد الصوياني وغيرها..

قلت: أوَ ترضى أنت بالاحتكام إلى هذه النصوص؟.

قال:ولِمَ لا؟ إن جميع الأديان والمذاهب والفلسفات، لا نعرف حقيقتها إلا بالرجوع إلى نصوصها الأصلية التي يصدر عنها أصحابها، هكذا يقول العقل[1].

قلت: لقد أنصفتَ، ولأعرضنَّ عليك من النصوص الأصلية التي رضيتَها، ثم لك أن تحكم بما يمليه عليك عقلك وإنصافك.

قال:إني مُصغٍ.

قلت: استمع معي إلى آيات القرآن الكريم التي تعلِّم نبي المسلمين، ثم المسلمين، طريقة نشر الدعوة الإسلامية بين الناس:

- تقول الآية القرآنية مخاطبة رسول الله ﷺ، وكلَّ مسلم: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[2]، أتجد هنا سيفاً أم حواراً؟

قال: لا أجد هنا إلا حواراً، بل هو حوار لطيف حسن.

قلت: وتقول الآية القرآنية مخاطبة رسول الله ﷺ، وكل مسلم: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[3]، أتجد هنا سيفاً أم حواراً؟.

قال: لا أجد هنا إلا حواراً، بل هو حوار لطيف حسن كسابقه.

قلت: وتقول الآية القرآنية: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]، وأهل الكتاب كما تعلم، هم اليهود والنصارى، أتجد هنا سيفاً أم حواراً؟

قال: لا أجد هنا إلا حواراً، بل هو حوار لطيف حسن كسابقَيه.

---

[1] يقول المستشرق السويسري (جان سبيرو): «إنه كلما ازداد الإنسان اطلاعاً على سيرة محمد النبي، لا بكُتب أعدائه وشانئيه، بل بتآليف معاصريه، وبالكتاب والسنَّة، أدرك أسباب إعجاب الملايين من البشر في الماضي وحتى الآن بهذا الرجل، وفهم علة تفانيهم في محبته وتعظيمه».

[2] سورة النحل /١٢٥.

[3] سورة النحل /١٢٥.

[4] العنكبوت /٤٦.

واستدرك قائلاً: لكن هل لك أن توضح لي كيف تتم هذه المجادلة بالتي هي أحسن، على أن نبقى ضمن النصوص الأصلية.

قلت: لك هذا، ولن أخرج عن النصوص الأصلية قِيدَ أُنملة، فاستمع إلى تمام الآية السالفة ليتوضح لك ما تريد، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[1]، أي أن علينا نحن المسلمين أن نبيِّن لهم – لليهود والنصارى – حقيقة ديننا الذي يعترف بنبوَّة جميع الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى لهداية البشر، ويصدِّق جميع الكتب التي أنـزلها عليهم، ومنها التوراة والإنجيل اللذان أُنـزلا على موسى وعيسى عليهما السلام.

قال الأب ستيفانو: هذا حسن، لكن وردتْ في الآية التي ذكرتَها عبارةٌ أود أن توضحها لي.

قلت: ما هي؟

قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ من هم هؤلاء الذين استثنتهم الآية من الحوار والمجادلة الحسنة؟

قلت: هؤلاء، هم الذين يسبُّون ويشتمون دين الإسلام ونبي الإسلام، ويعتدون على المسلمين ويظلمونهم، أينفع الحوار والمجادلة الحسنة مع هؤلاء؟.

قال: لا، فالمعتدي يجب أن يحاسَب ويعاقَب، هكذا يقول العقل، ولو تركنا المعتدي على هواه، لألحق الأذى والضرر بالأبرياء.

وأردف قائلاً: ولا أكتمك أن هذه اللفتة في الآية، فيها حفظ لكرامة المسلمين[2].

---

[1] العنكبوت /٤٦.

[2] تقول البريطانية الباحثة في الأديان (كارين أرمسترونغ) في كتابها (محمد): «وفي الغرب، غالباً ما نتخيل محمداً قائد حرب، ماضياً يلوح بسيف ليفرض الإسلام على مجتمع كاره له، بقوة السلاح. أما الحقيقة فكانت جد مختلفة، فقد كان محمد والمسلمون الأوائل يكافحون في سبيل الإبقاء على حياتهم» ص ٢٥٢. وتقول «وبعد الهجرة بدأ القرآن يطور تشريعات للحرب العادلة، إذ أن الحرب تكون أحياناً ضرورية للحفاظ على القيم=

قلت: لقد أنصفتَ.

قال: أنا أتفق معك من خلال النصوص، أن الإسلام دين يدعو إلى الحوار، لكنْ...

وصَمَتَ الأب ستيفانو قليلاً. فقلت مستحثاً إياه على المتابعة:

- لكن ماذا؟

قال: لكن إذا رفض الذين تحاورهم الاستجابة إلى دعوتكم، و لم يُجدِ الحوار، فالسيف... أليس كذلك؟

قلت: على رِسْلك، أمَا زلنا متفقَين على الاحتكام إلى النصوص الأصلية؟

قال: بلى، ولن أعفيك من هذا الاتفاق.

قلت: إذاً استمع إلى هذه الآية القرآنية التي تعلم نبي المسلمين وكل مسلم، كيفية الحوار مع النصارى واليهود، وكيفية الرد على الرافضين منهم. تقول الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[1]، وكرَّرتُ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وأردفت: أي إنْ رفَض النصارى واليهود ما تدعوهم إليه من توحيد الله وعبادته سبحانه وحده، فاتركوهم وشأهم[2]، واثبتوا أنتم على الإسلام. أفي هذا سيف أو عنف أو إكراه؟

---

=الفاضلة، ولولا استعداد بعض المتدينين من الناس لدفع الهجوم، لحطمت جميع أماكن عبادقم» ص ٢٥٤. وتقول «ويتفق مسيحيون كثيرون على مفهوم الحرب العادلة، لأهم يعلمون أن المعركة المسلحة ضد أمثال هتلر وسيسيكو هي الطريقة الوحيدة المؤثرة، ولهذا فبدلاً من أن يكون الإسلام ديناً سلبياً يدير الخدّ للآخر، فهو دين يقاتل الطغيان والظلم» ص ٢٥٩.

[1] آل عمران /٦٤.

[2] تقول البريطانية الباحثة في الأديان (كاترين أرمسترونغ) في كتابها (محمد): «ففي ظل الإمبراطورية الإسلامية تمتع اليهود، مثلهم مثل المسيحيين، بحرية دينية كاملة، وعاش اليهود في المنطقة بسلام حتى إقامة دولة إسرائيل=

قال الأب ستيفانو: الحقَّ أقول: لا سيف ولا عنف ولا إكراه.

قلت: بل أوضح من هذا وأَبْــيَن، تقول الآية القرآنية مشيرةً إلى جميع البشر، من المِلل كافة: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وكرَّرتُ: ﴿مَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾. ثم حساب المؤمن والكافر علــى الله سبحانه، وليس على البشر.

وأردفت: بل أوضح من هذا وأَبْــيَن، تقول الآية القرآنية معلنة المبدأ العــام في الدعوة إلى دين الإسلام: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[2]. وانطلاقــاً من هذا المبدأ العام، أتدري ماذا فعل نبي المسلمين عندما رفض الكافرون بوحدانية الله الاستجابةَ لدعوته، وامتنعوا عن القبول بعبادة الله وحده، وأصــروا علــى عبــاداتهم الضالَّة؟

قال: ماذا فعل؟

قلت: لم يجرِّد عليهم سيفاً، ولم يعنف بهم، ولم يحاول إكراههم بأي وســيلة، إنما التجأ إلى ربه، يدعوه ويستخيره فيما يفعل أو يقول بشــأن هــؤلاء الكــافرين المعاندين، فنــزلت الآيات القرآنية ترشده وتوجهه وتقول لــه: ﴿قُــلْ يَــا أَيُّهَــا الْكَافِرُونَ{١} لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ{٢} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٣} وَلَا أَنَا عَابِــدٌ مَّــا عَبَدتُّمْ{٤} وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ{٥} لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[3].

وكرَّرتُ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

---

=في قرننا الحالي – العشرين المسيحي – ولم يعانِ اليهود في ظل الإسلام ما عانوه في ظــل المســيحية، أمــا الأساطير الأوروبية المعادية للسامية، فقد قدمت إلى الشرق الأوسط في نهاية القرن الماضي – التاســع عشــر المسيحي – على يد البعثات التبشيرية المسيحية، وكانت الجماهير عادة ما تقابلها بالازدراء» ص ٣٠٩–٣١٠ – ط. كتاب سطور.

[1] الكهف /٢٩.

[2] البقرة /٢٥٦.

[3] سورة الكافرون.

وتقول له: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1].

وتقول له: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي{١٤} فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾[2].

وأردفت: أهناك حرية دينية فوق هذا؟

قال الأب ستيفانو: أشهد أن هذا عين الإنصاف!

قلت: أعرفتَ الآن، إن كانت تهمة انتشار الإسلام بالسيف، حقاً أم باطلاً؟

قال:أجل عرفت، إنها تهمة باطلة، وأشهد أن الإسلام بريء منها[3].

---

[1] يونس /٤١.

[2] الزمر /١٤-١٥/.

[3] يقول المهاتما غاندي متحدثاً عن هذه التهمة: «أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحتُ مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه وشجاعته مع ثقته المطلقة بربه ورسالته، هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب، وليس السيف، بل بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي آسفاً لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة».

ويقول المستشرق (توماس كارليل) في كتابه (محمد المثل الأعلى): «من الشبهات التي يثيرها بعض المسيحيين: أن النبي قام بنشر الدين الإسلامي بقوة السيف، وهذا القول بعيد كل البعد عن الصواب، لأن الذين يدَّعون ذلك عليهم أن يتدبروا قليلاً، فلا بد أن يكون هناك سر في هذا السيف الذي خرج من جزيرة العرب ووصل بأيدي القادة المسلمين إلى جبال (إسبانيا) غرباً وإلى (سمرقند) شرقاً. فما هو هذا السر؟ بلا شك إن السر في ذلك يعود إلى الشريعة الإلهية التي جاء بها النبي محمد، تلك القوة العظمى التي دفعت بعبدة الأصنام والأوثان في جزيرة العرب إلى القبول والإذعان لهذا الدين الذي جاء بالقوانين الإلهية التي وضعها الحكيم العليم، والتي تضمن سعادة الإنسان ورقيه، والمسألة الأخرى التي نلفت الأنظار إليها، هي أن الإسلام عندما انتشر شرقاً وغرباً كان قد قضى على جميع العقائد والمذاهب الباطلة، لأنه كان حقيقة ثابتة نابعة من صميم الإنسان، وغيره من الطرق والمذاهب مزيف لا ينسجم مع الطبيعة الإنسانية، وهو زائل، أو في طريقه إلى الزوال».

ملاحظة: برغم دفاع كارليل عن الإسلام ونبي الإسلام، إلا أن له أقوالاً في القرآن الكريم لا تتفق والعقيدة الإسلامية.

*            *            *

**٢- الغربيون ودراسة شخصية محمد ﷺ:**

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: والآن أودُّ العودة إلى السؤال الذي جئتك لأجله.

قلت:وما سؤالك؟.

قال: إن بلادي أوفدتني إلى بلادكم رَجلَ دين، لا لأكرِّس وقتي لوعظ الناس... فعندكم من الواعظين المسلمين والنصارى ما يكفي وزيادة..

قلت: لقد أَنصفتَ، فما سبب وِفادتك؟.

قال: لقد كُلِّفت من قِبل الجهة التي أعمل فيها، بأن أكتب بحثاً عن (مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد) نبيكم. وأن أدرس من خلال ذلك شخصية هذا النبي، أكانت قاسية رهيبة تتناسب مع تهمة مجيئه بالسيف ونشر دينه به؟ أم أنها كانت شخصية عطوفة رحيمة تتناقض مع هذه التهمة؟.

قلت: وما الداعي إلى مثل هذا البحث؟.

قال: إن مجتمعاتنا الغربية اليوم – بسبب ما يتردد في وسائل الإعلام – بات الشغلَ الشاغل لها سيرةُ نبيكم محمد.. و لم يجد المعنيون بهذا، وسيلةً أفضل من إعادة دراسة وتقويم سيرة محمد على ضوء الرجوع إلى النصوص الأصلية التي جاء بها، لأجل الوصول إلى الحقيقة غير المشوّهة عن محمد ودينه الذي جاء به. ثم عَرضِ هذه الحقيقة على المجتمعات الغربية، حتى يتسنى لها التخلص من كل ما لا يمتّ إلى الحقيقة بصِلة.

وأردف قائلاً: ولما عزمتُ البدءَ بالكتابة، وجدتني أولاً بحاجة إلى مطالعة ما سبق أن كتبه الغربيون، من مستشرقين ودارسين، عن شخصية محمد... واستغرق هذا مني قرابة سنة، كانت حصيلتها النتيجة التالية:

لقد وجدتُ دارسي شخصية محمد من الغربيين ينقسمون فئتين:

– فئة كتبت عنه بروح سلبية، وهؤلاء كانوا ينطلقون من وجهة نظر عدائيـــة، كانت تثيرها الكنيسة الغربية منذ القديم.. والغرض منها تشويه صورة محمد في نظـــر الغربيين، حتى يَنفِروا منه ومن دينه، فلا ينجذبون إليه، ولا يعتنقون دينه!

وكان من هؤلاء المشوِّهين قدماءُ ومُحْدَثون:

أما القدماء، فقد كشف الفيلسوف الفرنسي (رينان) أمرهم لعامة الناس حتى لا ينخدع أحد بأقوالهم.. وشهد على تحاملهم وحقدهم السافر على محمد، فقال: «لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد.. إنه تاريخ يمتلئ بالحقد والكراهية له. لقـــد ادّعوا أن محمداً كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له! ولقد وصفه دانتي بالإلحاد في رواية (الجحيم)، وأصبح اسم محمد عنده وعند غيره، مرادفاً لكلمـــة كافر أو زنديق!

ولقد كان محمد في نظر كتّاب العصور الوسطى، تارة ساحراً، وتارةً أخـــرى فاجراً شنيعاً، ولصاً يسرق الإبل، وكاردينالاً لم يفلح في أن يصبح (بابا) فاخترع ديناً جديداً أسماه (الإسلام) لينتقم من أعدائه! وصارت سيرته رمـــزاً لكـــل الموبقـــات، وموضوعاً لكل الحكايات الفظيعة»[١].

وتابع: ويزداد كلام رينان وضوحاً، عندما نقرأ ما كتبه المستشرق السويسري (جون وانبورت) في كتابه (محمد والقرآن) إذ قال: «بقدر ما نرى من صفة محمـــد الحقيقية بعين البصيرة والتروي في المصادر التاريخية الصحيحة، بقدر ما نرى من ضعف البرهان، وسقوط الأدلة لتأييد الهجو الشديد، والطعن القبيح، الذي انهال عليـــه مـــن أفواه المغرضين، والذين جهلوا حقيقة محمد ومكانته».

---

[١] (دراسات في التاريخ الديني) لأرنست رينان – عن كتاب (دفاع عن محمد) د. عبـــد الـــرحمن بـــدوي ص ٥-٦.

وعندما نقرأ ما كتبه (برنارد شو) في كتابه (محمد) الذي أحرقته السلطات البريطانية: «إن رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجة للجهل والتعصب، قد رسموا لدين محمد صورة قاتمة».

* * *

وتابع الأب ستيفانو قائلاً:

– وأما المُحْدَثون من هؤلاء المشوِّهين.. المُحدَثون الذين يدَّعون أنهم درسوا حياة محمد بحسب المنهج العلمي النقدي، الذي يقول بوجوب طرحِ الدارسِ كلَّ الأهواء والميول الشخصية جانباً، قبل البدء بالدراسة.. هؤلاء يحدثنا المستشرق النمساوي (ليوبولد فايس)[1] في كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) عن طريقتهم في دراسة الإسلام والسيرة النبوية قائلاً: «إن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين –عند دراستهم للإسلام والسيرة النبوية – تذكِّرنا بوقائع دواوين التفتيش! تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى، أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبداً أن نظرت إلى القرائن التاريخية بتجرد، لكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاجٍ متفق عليه من قبل، قد أملاه عليها تعصبها لرأيها»[2].

---

[1] بعدما درس هذا المستشرق الإسلام وعرف حقيقته، دخل فيه وتسمى (محمد أسد).

[2] ص ١٥ – ط. الأولى – يقول المستشرق الفرنسي (إميل درمنغم) في كتابه (حياة محمد) متحدثاً عن الدور السلبي لبعض المستشرقين في كتابة السيرة النبوية: «من المؤسف حقاً أن غالى بعض المتخصصين – من المستشرقين – من أمثال: موير ومرجليوث ونولدكه وشبرنجر ودوزي وكيتاني ومارسين وغريم وجولدزيهر وغودفروا وغيرهم، في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص، ولا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي، وليس من مقاصد كتابي أن يقوم على سلسلة من المتجادلات المتناقضة.. ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامنس الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدهم تعصباً! ولقد شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ولنبي الإسلام» ص٨-١١.

ثم يقول في كتابه هذا أيضاً عن هذه الفئة: «أما تحامل المستشرقين على الإسلام، فغريزة موروثة، وخاصةٌ طبيعية، تقوم على المؤثرات التي خلَّفتها الحروب الصليبية بكل مالها من ذيول في عقول الأوروبيين»[1].

وتابع الأب ستيفانو قائلاً:

- وفي هؤلاء المُحْدَثين من المشوِّهين يقول المستشرق الفرنسي (آتيين دينيه) في كتابه (محمد رسول الله) مصوِّراً الحالة المتدنية التي وصلت إليها كتابة السيرة النبوية على يد بعض المستشرقين: «إنه من المتعذر، بل من المستحيل، أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة، وإنهم – لذلك – قد بلغ تحريفهم لسيرة النبي والصحابة مبلغاً يخشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها! وبرغم ما يزعمون من اتِّباعهم لأساليب النقد البريئة، ولقوانين البحث العلمي الجاد، فإننا نجد – من خلال كتاباتهم – محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً! وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطالياً!.. وهكذا تتغير صورة محمد بتغير صورة الكاتب! وإذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة، فإننا لا نجد لها من أثر.

إن المستشرقين يقدمون لنا صوراً خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة! إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال (ولتر سكوت –وإسكندر ديماس) وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصاً من أبناء قومهم، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة، أما المستشرقون فلم يمكنهم أن يلبسوا الصورة الحقيقية لأشخاص السيرة، فصوروهم حسب منطقهم الغربي، وخيالهم العصري».

ثم يقول: «ما رأي الأوروبيين في عالِم من أقصى الصين، يتناول المتناقضات التي تكثر عند مؤرخي الفرنسيين، ويمحِّصها بمنطقه الشرقي البعيد، ثم يهدم قصة (الكاردينال ريشيلو) كما نعرفها، ليعيد إلينا (ريشيلو) آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين، وسِماته وطبعه؟!.

---

[1] ص٥٨.

إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق بسيرة محمـــد، ويخيل إلينا أننا نسمع محمداً يتحدث في مؤلفاتهم، إما باللهجة الألمانية، أو الإنكليزية، أو الفرنسية، ولا نتمثله قط – بهذه العقلية والطباع التي أُلصقت به – يحـــدِّث عربـــاً باللغة العربية»[1].

وتابع الأب ستيفانو قائلاً:

– ويقول المستشرق (مونتغومري وات) في كتابه (محمد في مكة) عن هؤلاء المشوِّهين: «وإذا حدث أن كانت بعض أراء العلماء الغربيين، غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائماً مخلصين لمبادئهم العلمية، وأن آراءهم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة»[2].

ويقول عنهم المستشرق (مكسيم رودنسون) في معرض تقويمه ما كتبه العلمـــاء الغربيون المُحدَثون عن الإسلام ونبي المسلمين: «يمكن القول بصورة عامة، إن العلماء في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان يزيد ضررهم على نفعهم، وذلـــك لتأثرهم بالأحكام الشائعة لا بالعلم»[3].

* * *

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: أما أنا، فبعدما تعرفتُ على مـــا كتبـــه القـــدماء والمُحدَثون من هذه الفئة المشوِّهة، أدركت أن هؤلاء الكتَّاب كانوا على قدر كبير من الجهل بحياة وسيرة محمد الحقيقية، وأدركتُ أنهم لم يُجَشِّموا أنفسهم عناء الرجوع إلى النصوص والمصادر الأصلية لسيرة محمد[4].

---

[1] ص ٢٧-٢٨-٤٣-٤٤ – بعدما درس هذا المستشرق الإسلام وعرف حقيقته، دخل فيه وتسمَّى (ناصـــر الدين الجزائري).

[2] ص٦ وقد أنهى المؤلف كتابه هذا عام /١٩٥٢م/.

[3] كتاب (تراث الإسلام) ص٦٣.

[4] يقول د. عبد الرحمن بدوي في مقدمة كتابه (دفاع عن محمد): «خلال تتبعي للمفـــاهيم الـــتي تبناهـــا الأوربيون حول نبي الإسلام محمد، انتابني الذهول من جهلهم المطبق! وعدوانيتهم الواضحة، وأحكـــامهم

وأستطيع أن أقول، وأنا مطمئن الاطمئنانَ كلَّه لما أقول: لقد ساد دراسات هؤلاء الغربيين من مستشرقين ودارسين لحياة محمد، كثير من التعسف في تفسير النصوص والأحداث، بسبب الأهواء الدينية والعنصرية، أو بسبب سوء الفهم للإسلام وأحكامه ونظمه ومقاصده[1].

وأردف: ولأجل هذا كله، لم أستطع أن أُفيد من كتابات هذه الفئة المشوِّهة، في بحثي الذي أنا بسبيله.

* * *

قلت: والفئة الأخرى؟

قال: الفئة الأخرى، كتبتْ عن شخصية محمد بروح إيجابية، وهؤلاء كانوا ينطلقون في كتاباتهم إما من وجهة نظر وُدِّية متعاطفة، وإما من وجهة نظر منصفة تَنشدُ الحقيقة[2].

وقد حاولت الإفادة مما كتبوه.. إلا أنني بعدما اطلعت على كتبهم، وجدتُني لا أستطيع الاكتفاء بما طالعت منها وقرأت، برغم تلك الصورة الزاهية لمحمد في هذه الكتب.

قلت: ولِمَ تعتقد هذا؟

قال: لقد وجدتُ هذه الفئة من الدارسين، منهم من درس محمداً العبقري، من خلال مظاهر العبقرية البشرية، وقَرَنه بمن ظهر من العباقرة في التاريخ البشري.

---

المسبقة المتأصلة، وتحزبهم الطاغي ضد خصومهم، وهذا لا ينطبق فحسب على الشعب الجاهل الساذج ولكنه ينطبق أيضاً على أكبر علمائهم وفلاسفتهم ورجال الدين والمفكرين والمؤرخين».

[1] انظر (السيرة النبوية الصحيحة) د. أكرم العمري ص ١٨.

[2] كان لبعض كتَّاب هذه الفئة دور مشكور في تعريف الغرب بالصورة الصحيحة للنبي ﷺ، يقول المستشرق (مونتغومري وات) في كتابه (محمد في مكة): «منذ أن قام كارليل بدراسته عن محمد في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) أدرك الغرب أن هناك أسباباً وجيهة للاقتناع بصدق محمد» ص ٩٤.

ومنهم من درس محمداً الفيلسوف، من خلال مبادئ الفلسفة البشرية، وقَرَنه بمن ظهر من الفلاسفة في التاريخ البشري.

ومنهم من درس محمداً المصلح الديني، من خلال سُبُل الإصلاح الديني البشرية، وقَرَنه بمن ظهر من المصلحين الدينيين في التاريخ البشري.

ومنهم من درس محمداً القائد العسكري، من خلال النظم العسكرية البشرية، وقَرَنه بمن ظهر من القواد العسكريين في التاريخ البشري.

ومنهم من درس محمداً المُشَرِّع، من خلال التشريعات والقوانين البشرية، وقَرَنه بمن ظهر من المشرعين وواضعي القوانين في التاريخ البشري.

إلى غير هذا من صفات العظمة البشرية التي كانوا يستخلصونها من سيرة محمد، وكانوا في كل صفة منها يضعون محمداً في القمة على رأس الجميع!.

قلت: وماذا في ذلك؟

قال: فيه أنهم بهذا يدرسون محمداً على أنه عظيم من عظماء البشر، يتمتع بصفات متميزة كغيره من عباقرة الرجال[1]... لكنهم يَغفلون عن مناقشة النتيجة التي

---

[1] يقول المستشرق البريطاني (بودلي) في كتابه (الرسول – حياة محمد) متحدثاً عن موضوعات القرآن الكريم: «إنها لتعطي فكرة عن نوع العقل الذي كان يتمتع به محمد! وإنها لتجعل المرء يعجب كيف عرف كل هذا؟! ومتى فكَّر في كل هذا؟! وأين تعلم نظم الشعر المرسل الرنان؟!» ص ٢١٨.

ويقول المستشرق الأمريكي مايكل هارت في كتابه (الخالدون المئة): «إن محمداً أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ» ص١٨.

ويقول كارليل في كتابه (الأبطال وعبادة البطل) في ختام دفاعه عن النبي ﷺ: «هكذا تكون العظمة، هكذا تكون البطولة، هكذا تكون العبقرية».

ويقول المستشرق (إدوارد مونتيه) في كتابه (حاضر الإسلام ومستقبله): «إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد، بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة».

ويقول المستشرق (إميل درمنغم) في كتابه (حياة محمد): «إن قوة عبقرية محمد الإنشائية واتساعها، وذكاءه العظيم، ونظره الصائب إلى الحقائق، وسيادته لنفسه، وقوة إرادته، وحكمته، واستعداده للعمل، وحياته الواقعية، كل ذلك يجعل الزيف في مبدأ رسالته يستحيل القبول. فكيف يُتصور أن ينقلب كاذباً فجأة،

ذلك الذي كان نجاحه يظهر له! كبرهان ساطع على تأييد الإله لدعواه، وكيف يمكن أن يُجرَّأ على تشويه رسالته في الوقت الذي كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الإله». ثم يقول: «إن الناس حال سماعهم خطب محمد المهمة، وكتاباته! الملتئمة مع عصره، قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفي الذي يقودهم إليه».

ويقول الشاعر الفرنسي الشهير (لامارتين) في كتابه (تاريخ الأتراك): «إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سمو الغاية والنتائج المذهلة لذلك، رغم قلة الوسيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيّاً من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة، وسنّوا القوانين، وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجاداً بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانيهم. لكن هذا الرجل محمداً لم يَقُد الجيوش ويسن التشريعات ويُقم الإمبراطوريات ويحكم الشعوب ويروِّض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس فيما كان يُعد ثلث العالم حينئذ. ليس هذا فقط، بل إنه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة» إلى أن يقول: «هذا هو محمد الفيلسوف، الخطيب، النبي، المشرع، المحارب، قاهرالأهواء،= =مؤسس المذاهب الفكرية التي تدعو إلى عبادة حقَّة بلا أنصاب ولا أزلام، هو المؤسس لعشرين إمبراطورية في الأرض وإمبراطورية روحانية واحدة. هذا هو محمد» الجزء/١١/ص٢٧٦-٢٧٧ ط. باريس/١٨٥٤.

ويقول المستشرق (بوزورث سميث) في كتابه (محمد والمحمدية): «لقد كان محمد قائداً سياسياً وزعيماً دينياً في آنٍ واحد. لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة، ولم يكن لديه جيوش مجيشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت. إذا كان لأحد أن يقول إنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد، لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها، ودون أن يساانده أهلها» ص٩٢ ط. لندن/١٨٧٤.

ويقول المستشرق الكندي زويمر في كتابه (الشرق وعاداته): «إن محمداً كان ولا شك من أعظم القواد المسلمين الدينيين، ويصدق عليه القول أيضاً بأنه كان مصلحاً قديراً وبليغاً فصيحاً وجريئاً مغواراً، ومفكراً عظيماً، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات، وهذا قرآنه الذي جاء به، وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء».

وهذه كلها أوصاف تريد أن تنأى بمحمد ﷺ عن ظاهرة الوحي الإلهي، وتريد أن تُظهر أن ما جاء به ما هو إلا مكتسبات شخصية بشرية، أما إن وردت عند بعضهم كلمة (نبي) فعلى أنها صفة مثل بقية الصفات الشخصية. أو أنها لا تتعدى مفهوم كلمة (نبي) في كتاب (العهد القديم) التي تطلق على الكثيرين من أنبياء بني إسرائيل ممن كانت نبوءاتهم رؤىً يرونها في منامهم، وتنسب إليهم كتب وأسفار من تأليفهم هم، وبالتالي فمحمد ﷺ عندهم هو مَن ألَّف قرآنه. وهذا هو عين ما يقوله المستشرق إدوارد مونتيه في كتابه (حاضر الإسلام ومستقبله) ممتدحاً النبي ﷺ: «كان محمد في بلاد العرب أشبه بنبي من أنبياء بني إسرائيل

كانوا يصلون إليها دائماً، وهي أن محمداً دائماً في القمة بين العظماء جميعــاً! مهمــا كانت صفة العظمة التي يدرسونها فيه. بل هو دائماً يجمع كل صفات العظمة... بينما غيره من العظماء يتوزعون فيما بينهم هذه الصفات.. التي تجمعت فيه وحده! فلماذا؟

قلت: وهل في هذا ما يثير التساؤل؟

قال: أجل، كان الأجدر بأولئك الدارسين، عندما وصلوا جميعــاً إلى نتيجــة واحدة، أن يتساءلوا: لماذا محمد دون غيره، هو دائماً في القمة؟ ولماذا محمد دون غيره، تجتمع له صفات العظمة، بينما هي لا تجتمع لغيره من العظماء الذين نعــرف سِــيَر حياتهم؟

وأردف: كان عليهم أن يناقشوا هذا، ويصلوا إلى سرِّ هذه النتيجة.

قلت: وهل تنبهتَ أنت لِما غفلوا عنه؟

قال: أجل.

قلت: هل لك أن تحدثني بما تنبهتَ له؟

قال: لا بد لي من أن أحدثك به، حتى أصل إلى الفائدة التي أتوقعها منــك في كتابة بحثي، فأصغ إلي.

* * *

## ٣- أثر البيئة والوراثة في عَظَمة النبي ﷺ:

---

الذين كانوا كباراً جداً في تاريخ قومهم، ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه، وذلك لأنه من المصلحين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها».

ويجب الحذر من هذه الأقوال التي لا تلتفت إلى ظاهرة الوحي الإلهي.. ولعل هذا ما كانت تعنيه المستشرقة (بيانكا سكارسيا) في كتابها (العالم الإسلامي وقضاياه التاريخية) بقولها: «عَمِــل الاستشــراق لصــالح الاستعمار بدلاً من إجراء التقارب بين الثقافتين. إن إنشاء هذا العلم لم يكن إلا من أجل تقــديم أدوات للاختراق أكثر براعة، فهناك فعلاً عملية ثقافية مستترة ماكرة ومرائية، وهذا ما يفسر ريبة المسلمين حيال كل ما يقال عنهم في الغرب» ص٢١٤.

وتابع قائلاً: من الشائع لدى الباحثين والدارسين، أن أهم ما يتحكم في طبيعة الإنسان – وبخاصة العبقري المتميز – عاملان رئيسان هما: عامل البيئة – و عامل الوراثة.

أما عامل البيئة: فمن المتفق عليه أن البيئة التي ينشأ ويتربّى فيها الإنسان، ذات أثر خطير في سجل حياته، وفي إكسابه الكثير من الصفات التي يُطل بها على مجتمعه.

فالفيلسوف العبقري، يجب أن يعيش في بيئة فلسفية.. و لم يتهيأ هذا لمحمد في بيئته البدوية الأمّية التجارية.

والمصلح الديني العبقري، يجب أن يطالع المذاهب والأديان وحياة المجتمعات.. ضمن بيئة ثقافية تهتم بمثل هذا.. و لم يتهيأ هذا لمحمد في بيئته البدوية الأمّية التجارية.

والقائد العسكري العبقري، يجب أن يعيش في بيئة عسكرية محاربة.. و لم يتهيأ هذا لمحمد، و لم نعلَمه يشارك في المعارك والحروب إلا بعد الخمسين من عمره.. بل هو وجد نفسه لأول مرة يقود معركة حربية – هي معركة بدر – وهو يقارب الخامسة والخمسين من عمره، بل هو أخذ بمشورة بعض أصحابه قبل بدء المعركة[1].

والمشرِّع العبقري، يجب أن يكون دارساً للقوانين، مطَّلعاً على نظم الحكم في أيامه وقبل أيامه.. و لم يتهيأ هذا لمحمد في بيئته البدوية الأمّية التجارية.

إلى آخر ما هنالك من صنوف العبقرية والعظمة..

فهل كان للبيئة التي عاشها محمد دور في كونه أعظم العظماء؟ والجواب حتماً: لا، لأن جميع من كانوا حول محمد عاشوا في بيئته، لكن لم يكن فيهم واحد مثله! مع أن منهم – بحسب ما عرفتُه عنهم – من لا يقل كفاءة بشرية عنه.. لكنّ الجميع كانوا يشعرون بأن محمداً الذي كان يعيش بينهم، يتميز عنهم بأمر لا يستطيعونه.. أمرٍ خصه الله سبحانه به دون سائرهم.. ولولا هذا الأمر لأمكن للكثيرين منهم أن ينافسوا محمداً في بعض مظاهر العظمة، منافسة أبناء البيئة الواحدة.

---

[1] مشورة الحباب بن منذر في اختيار مكان المعركة، في (السيرة النبوية) لابن هشام ص ٥٢٣ ط. دار ابن كثير.

* * *

وأردف قائلاً: وأما عامل الوراثة: فمن المتفق عليه أن للصفات الوراثية أثر خطير في سجل حياة الإنسان، وفي إكسابه الكثير من الصفات التي يُطل بها على مجتمعه.

ولو درسنا شخصيات أجداد محمد وآبائه، من خلال ما حفظته الروايات من أخبارهم، لوجدنا صفاتِ عظمةٍ متناثرةً بينهم.. فقد كانوا من خيرة الناس في مجتمعهم[1]، لكن لن نجد فيهم واحداً مثل محمد[2]، وكذلك لن نجد مثله في ذريته..

* * *

وأردف الأب ستيفانو متسائلاً:

– لماذا لم يَرقَ واحد من بني البشر إلى رتبة محمد؟!

– لماذا يقول عنه الشاعر الفرنسي الشهير (لامارتين): «إن محمداً هو أعظم رجل»[3].

---

[1] انظر في صحيح مسلم الحديث رقم/٤٢٢١. وفي الصحيحة للألباني الحديث /٣٠٢: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

[2] انظر في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٦٠٧/ الذي يسأل فيه هرقل أبا سفيان عن النبي ﷺ: «هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.. قال: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله».

[3] عن كتاب (مقارنة الأديان – قسم الإسلام) ص ٢٩٢ د. أحمد شلبي. — ولهذا الشاعر الفرنسي (لامارتين) /١٧٩٠-١٨٦٩م/ قصيدة يمتدح بها النبي صلى الله عليه وسلم عنوانها: «مَن أعظم منك يا محمد؟» نشرتها جريدة (الشرق الأوسط) في عددها/٩٩٩١ بتاريخ ٢٠٠٦/٤/٦م. ترجمها عن الفرنسية د. محمد المختار ولد أباه.

- ولماذا يقول (لامارتين) أيضاً في كتابه (تاريخ الأتراك): «بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أود أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد؟»[1].
- ولماذا يقول المستشرق (جون دريبر) في كتابه (تاريخ التطور الفكري الأوربي): «الرجل الذي كان له من دون الرجال جميعاً، أعظمُ تأثيرٍ على الجنس البشري.. هو محمد»[2].
- ولماذا يقول عنه المستشرق الآسوجي (سينرستن): «هو فوق عظماء التاريخ»[3].
- ولماذا يجعله المستشرق (توماس كارليل): «بطل الأبطال»[4].
- ولماذا يؤلف الباحث الأمريكي (مايكل هارت) كتاباً عنوانه «الخالدون المئة» ويجعل أعظمهم محمداً[5].
- ولماذا تؤلف مجموعة من الباحثين الغربيين كتاباً بعنوان: (الخمسون الذين كانوا أعظم شأناً في التاريخ) فيكون محمد هو الأول من بين هؤلاء الخمسين[6]!.

---

[1] الجزء /١١/ص٢٧٧.

[2] ٢٢٩/١-٢٣٠ ط. لندن/١٨٧٥

[3] في كتابه (تاريخ حياة محمد) ص ١٨. — ويقول (فارس الخوري) أحد أعلام النصارى والسياسيين السوريين: «إن محمداً أعظم عظماء العالم لم يَجُد الدهر بمثله». انظر (هذا ديننا) لمحمد الغزالي ص٢٥٠-٢٥١.

[4] في كتابه (الأبطال وعبادة البطل).

[5] يقول هارت عن سبب اختياره النبي ﷺ أعظم العظماء في التاريخ: «الامتزاج بين الدين والدنيا – في شخصية محمد – الذي ليس له نظير، هو الذي جعلني أؤمن بأن محمداً هو أعظم الشخصيات أثراً في التاريخ الإنساني كله». عن كتاب (ماذا يقول الغرب عن محمد) لأحمد ديدات ص ٩- وانظر ترجمة الكتاب ذاته إلى العربية بعنوان (المئة الأوائل) ترجمة خالد عيسى – أحمد غسان سبانو – ط. دار قتيبة ص٢٥ -٣٠.

[6] صدر هذا الكتاب /عام ١٩٨٩م/باسم المؤلف (أولف نيلسون) وقد أوضح أنه تمَّ اختيار هؤلاء الخمسين من بين عدد قدره /١١/مليار إنسان — وكان الاختيار على أساس من هو أكثر الناس تأثيراً على التاريخ البشري؟ فكان محمد ﷺ هو الأول بين البشر.

وأردف متسائلاً بتصميم: ما سرُّ محمد؟!.

* * *

### ٤- سرّ عَظَمة النبي ﷺ:

قلت: ما سرّه؟.

قال: إن سرّ عظمة محمد المتفرِّدة، لست أنا أول من اكتشفه، لقد سبقني إليه باحثون غربيون آخرون.. لكنهم قِلَّة.. منهم من اعتنق الإسلام، ومنهم من لم يعتنقه. وكان من أوائل هؤلاء، الشاعر الفرنسي (لامارتين) الذي يقول في كتابه (السفر إلى الشرق): «إن محمداً فوق البشر، ودون الإله، فهو رسول بحكم العقل». ثم يقول: «إن اللغز الذي حله محمد في دعوته، فكشف فيه عن القيم الروحية.. هو أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر»[١].

وأردف الأب ستيفانو قائلاً بابتهاج:

– هذا هو السر.. إن محمداً نبي مرسل من الله سبحانه، إن محمداً رسول الله إلى بني البشر، حمل إليهم رسالة فيها أعلى ما رسمه الخالق لبني البشر. ولهذا وجده دارسوه من هذه الفئة ذات الروح الإيجابية من الغربيين، لهذا وجدوه دائماً في قمة العظمة، بجميع مظاهر وصفات العظمة التي يعرفونها.

---

هذا وقد أوردت مجلة التايم الأمريكية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٤/٧/١٥ مقالاً بعنوان (من هم أعظم قادة التاريخ؟) أجرت فيه استفتاءً بين نخبة من أساتذة الجامعات، كان منهم المحلل النفسي (جولز ماسيرمان) الأستاذ في جامعة شيكاغو، الذي وضع شروطاً ثلاثة يجب توفرها في القائد العظيم هي:

يجب أن يتوفر في القائد التكوين السليم للقيادة.

يجب على القائد أن يوفر لشعبه مجموعة واحدة من المعتقدات.

يجب أن يوفر القائد نظاماً اجتماعياً يشعر فيه الناس بالأمن والطمأنينية.

وبعد أن قام بالتحليل والتمحيص لبعض الشخصيات مثل: بوذا – كونفوشيوس – المسيح – الإسكندر الأكبر – قيصر – لويس باستور – غاندي – هتلر... وصل أخيراً إلى النتيجة التالية فقال:

«لعل أعظم قائد كان على مر العصور هو محمد الذي جمع الشروط الثلاثة».

[١] ص٤٧.

إنه نبي، وصفات النبي تقصِّر دونها مقاييس البشر، لأن عظمة الأنبياء مستمدة من وحي الله تعالى. وتحت عنوان (رسول الله) تحت هذا العنوان فقط يجب أن تدرس شخصية محمد، لأن النبوة والرسالة هي التي وصلت به إلى ما وصل إليه، وإغفالها من دراسة شخصيته هو إغفال للركن الأساس الذي بنيت عليه هذه الشخصية. هكذا يقول العقل.

قلت: لقد أَنصفتَ أيها الأب ستيفانو، وأصبتَ كبد الحقيقة، وإنَّ ما توصلت إليه أنت وبعض الباحثين الغربيين عن طريق العقل، هو عين ما جاءت به النصوص الأصلية التي اتفقنا على الاحتكام إليها.

قال: ماذا تقول النصوص الأصلية؟

قلت: تقول الآية القرآنية مخاطبة رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[1]. وتقول الآية القرآنية: ﴿ما كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[2].

أي أن ما يتميز به محمد عنكم أيها الناس، لا يكمن في صفاته البشرية، إنما يكمن في كونه رسول الله، الذي يوحي إليه الله سبحانه.

* * *

### ٥- هل محمد ﷺ عدو للمسيح عليه السلام:

وأردفت: وإني لأعجب أيها الأب ستيفانو، كيف توصلتَ إلى هذا واقتنعتَ به، وأنت رجل دين نصراني؟!

قال: صحيح أنني رجل دين نصراني، لكنني أحترم وأُجلُّ الأنبياء جميعاً ، لأنهم لم يحملوا إلينا سوى الخير والمحبة، ولأن المسيح ذاته لم يأمرنا بالغضِّ من أيٍّ منهم أو

---

[1] الكهف /١١٠ - فصلت/٦.

[2] الأحزاب /٤٠.

إنكار رسالته، فإنْ فَعلْنا فقد خالفْنا تعاليم المسيح.. ثم من قال لك إن محمداً عدوٌّ للمسيح؟

قلت: إن بعض الغربيين يظنون هذا.

قال: إن من يقول هذا يجهل محمداً والمسيح معاً، ولو درس حياة محمد وعرف حقيقته، لما أمكنه أن يقول إلا كما قال برناردشو عنه.

قلت: وماذا قال برناردشو؟

قال: بعد أن عرف شو محمداً ودرس حياته وسيرته قال: «لقد درستُ محمداً وأُعجبتُ به، وفي رأيي أنه أبعد ما يكون عن وصفه بأنه ضد المسيح. يجب أن يُدعى (منقذ الإنسانية)»[1].

وأردف الأب ستيفانو قائلاً:

– وأعود إلى مجرى حديثي فأؤكد لك، إن الذين اتبعوا الأنبياء، لم يتبعوهم لأنهم كانوا رجالاً عظماء، ولا لأنهم كانوا رجالاً عباقرة، بل اتبعوهم لأنهم كانوا رجالاً أنبياء.

قلت: إذاً هل تكون نتيجة هذا أن صفات العظمة التي تحلّى بها رسول الله ﷺ، إنما مرجعها إلى نبوته ورسالته التي أرسله الله بها إلى الناس جميعاً؟

قال: أجل، وإن دارس شخصية محمد، لن تكون دراسته ذات جدوى إن هو فصل بين هذه الشخصية وبين النبوة، كما أن دارس نبوة محمد لن تكون دراسته ذات جدوى إن هو فصل بين القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة وما صحَّ من أخبار السيرة النبوية، لأنها عناصر متكاملة في موضوع واحد.

وأضاف: وبما أنني أرتضي هذه النتيجة، فإن عليَّ أن أدرس (مظاهر الرحمة[2] للبشر في شخصية محمد) على أنه نبي ورسول. ولهذا فقد عزمت على أن لا أقتنع

---

[1] عن كتاب (ماذا يقول الغرب عن محمد) لأحمد ديدات ص١٠. — وانظر كتاب شو (الإسلام الصادق).

[2] الرحمة: هي والعطف والحنان والرفق والشفقة واللين كلمات متحدة المعاني، أو متقاربة جد التقارب، ونقيضها: القسوة والشدة والفظاظة والغلظة والحدَّة.

بصحة مظهرٍ من مظاهر هذه الرحمة إلا إذا كان مؤيداً بنص من النصوص الأصلية الثلاثة التي اتفقنا على الاحتكام إليها.

وأردف قائلاً: وهذه هي الفائدة التي أتوقعها منك، حتى يكون بحثي مدعَّماً بالحجج الموثوقة.

قلت: على بركة الله، من أين تريد أن تبدأ؟

قال: قبل أن أبدأ، أودُّ أن أعرض عليك أمراً.

قلت: ما هو؟

قال: لقد عنَّ لي وأنا أُرتِّب أفكاري قبل البدء بالكتابة، أن أقدِّم لبحثي بمقدمة تتحدث عن مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد قبل البعثة.

قلت: هذا حسن.

قال: لكن اعترضتني هنا مشكلة.

قلت: ما هي؟

* * *

## ٦- هل يكون النبي نبياً قبل أن يبعث؟:

قال: إن النتيجة التي توصلتُ إليها فيما سلف من كلامي، تفيد أن دراسة شخصية محمد - من أي جانب كان - يجب أن تكون مبنية على أنه نبي رسول، وهو لم يُبعث نبياً رسولاً إلا بعد الأربعين من عمره، فكيف يسوغ لي أن أتحدث عنه قبل البعثة؟ ألا أكون متناقضاً مع نفسي في هذا؟

قلت: أَأُجيبك بمذهب المسلمين في هذا، أم بمذهب غير المسلمين؟

قال: بل أريد مذهب المسلمين، فأنا أعرف مذاهب غيرهم.

قلت: مذهب المسلمين في هذا، أن النبي لا يكون نبياً منذ ساعة بعثته فقط، إنما هو يولد نبياً.

قال: كيف هذا؟! وهل يكون الطفل الوليد نبياً؟

قلت: إن آيات القرآن الكريم تبيِّن أن الله سبحانه يصطفي ويختار من البشر أنبياء ورسلاً يحوطهم بعنايته ورعايته منذ ولادتهم... بل قبل أن يكونوا أجنة في أرحام أمهاتهم... ثم إذاما وُلدوا وكبروا... وأصبحوا في سن تؤهلهم لحمل رسالته، أرسلهم إلى من يشاء من عباده... وبمثل هذا تحدثت الآيات القرآنية عن موسى عليه السلام منذ ولادته فقالت: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ..﴾[1] حيث قصت علينا هذه الآيات وما بعدها، حياة موسى عليه السلام، وعناية الله سبحانه به منذ ولادته حتى وفاته.

وبمثل هذا تحدثت الآيات القرآنية عن يحيى عليه السلام، منذ بشارة الملائكة أباه زكريا به قبل أن يُخلق في رحم أمه، فقالت: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء{٣٨} فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وبمثل هذا تحدثت الآيات القرآنية عن المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام فقالت على لسان أمه مريم عندما بشرها الملَك بالحمل به بلا أب: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيّاً{٢٠} قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً{٢١} فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً{٢٢} فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً

---

[1] القصص/٧- وما بعدها.

[2] آل عمران /٣٨-٣٩.

مَّنسِيّاً﴾[1]. وقد قصَّت الآيات السابقة واللاحقة بها، ملخص الحمل به، وولادته، وما رافق ذلك من معجزات...

* * *

وأردفتُ: وهذا هو دأب الأنبياء والمرسلين... ومنهم محمد ﷺ. لقد كانت عناية الله تحوطه وترعاه منذ ولادته... وتؤدبه بأدب النبيين.

قال: وهل في آيات القرآن ما يشهد لهذه الرعاية والعناية الإلهية به قبل البعثة؟.

قلت: أجل، ولا بد أنك تعلم أنه كان في صغره يتيماً، وفي شبابه فقيراً، وكان قبل بعثته لا يعرف الدين الذي عليه أن يتبعه... فنزلت الآيات القرآنية فيما بعد، تبين له أنه لم يكن متروكاً لشأنه في مختلف مراحل حياته، بل كانت رعاية الله له هي التي تحفظه في كل ما ينوبه، تقول هذه الآيات: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى{٦} وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى{٧} وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾[2] أي أن الله سبحانه هو الذي آواه ويسَّر له من يكفله في صغره، وهو الذي هداه إلى الدين الصحيح الذي عليه أن يتبعه، وهو الذي أغناه في فقره بالتجارة بأموال زوجته الأولى خديجة. وهكذا كان محمد قبل البعثة مثل غيره من الأنبياء، يصنعهم الله سبحانه على عينه...

* * *

وهنا نظر جاري (الأب نقولا) إلى ساعته وقال:

– أرجو أن تأذنا لي بأن أقترح أمراً.

قلت: اقترح ماشئت.

قال: أقترح أن نكتفي هذه الليلة بما دار من حديث.. على أن نتابع مساء غدٍ عند الساعة التاسعة إن شاء الله.

قلت: ولِمَ؟

---

[1] مريم /٢٠-٢٣.

[2] الضحى /٦-٧-٨.

قال: كي لا نطيل السهر، فليالي رمضان عند المسلمين ليالي عبادة.

قلت: ومجلسنا هذا، بما دار فيه، هو مجلس عبادة إن شاء الله. بل إن مجلساً تذكر فيه آيات القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة، هو روضة من رياض الجنة عندنا نحن المسلمين. أما إن رغبتما بمساء الغد فلا بأس.

وأبدى الأب ستيفانو موافقته على مساء الغد، ونهض الضيفان متهيئَين للخروج، فشيعتهما إلى باب المترل.. وخرجا مودِّعَيْن..

* * *

الفصل الثاني

## مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ قبل البعثة

مساء اليوم التالي، وعند الساعة التاسعة، رن جرس منــزلي، ففتحت البــاب، واستقبلت الضيفين الكريمين مرحِّباً بهما..

ولما استقر بنا المجلس، بعد بعض المجاملات.. وبعد أداء واجب إكرام الضيف.. بدأ الأب استيفانو متابعاً حديث الأمس فقال:

- بناءً على ما انتهينا إليه بالأمس، هل أستطيع أن أجد في شخصية محمد بعض مظاهر الرحمة للبشر، قبل البعثة، لأجعلها في بحثي مقدمة لما بعد البعثة؟.

قلت: أجل، فهذا مبثوث فيما صح من أخبار السيرة النبوية.

قال: هل لك أن تحدثني بما يحضرك منها؟

قلت: لك ما تريد، لكن أتدري بماذا كان قوم محمد يلقبونه طيلة المــدة الــتي سبقت بعثته؟.

قال: بماذا كانوا يلقبونه؟.

قلت: كان قومه الذين وُلد بينهم، ونشأ بينهم، وعرفوه حق المعرفة.. كــانوا يلقبونه (الأمين)[1]، أترى أن إنساناً يُلقَّب بهذا من قِبَل مجتمعٍ يعرفه حق المعرفة، يمكــن أن يكون إنساناً فظاً غليظاً قاسياً، محباً لسفك الدماء؟

قال: العقل يقول: لا يمكن أن يكون مثل هذا الإنسان إلا برًّاً رحيمــاً عطوفــاً ودوداً. بل كأني بمن يلقبه قومه هذا اللقب، كأني به لم يقترف في حياته إثمــاً و لا ذنباً، ولو فعل لتعلق به قومه عليه، ولزالت حرمته من نفوسهم.

---

[1] (السيرة النبوية) لابن هشام ص١٨٦ ط. دار ابن كثير – ويقول المؤرخ البريطاني المستشرق (وليم موير) في كتابه (تاريخ محمد): «إن محمداً نبي المسلمين لقب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده، لشرف أخلاقه وحسن سلوكه».

قلت: هو ذاك، لم يقارف محمد قبل البعثة إثماً ولا ذنباً... بل ولا لهواً أيضـاً[1]، هذا ما تقوله روايات السيرة النبوية الصحيحة[2].

* * *

## ١- محمد وزيد بن حارثة:

قال: وماذا عن مظاهر رحمته آنذاك؟

قلت: تروي كتب السيرة النبوية: أن محمداً قبل البعثة، كان قد تزوج بخديجة بنت خويلد – أولى زوجاته – وكان لخديجة ابن أخ اسمه (حكيم بن حزام بن خويلد) يعمل بالتجارة، فقدم ذات مرة من الشام برقيقٍ يتَّجِرُ به، وفي الرقيق غلام بلغ أن يكون وصيفاً[3] اسمه زيد بن حارثة، فدخلتْ على حكيم عمته خديجة، وهي يومئذٍ زوج لمحمد. فقال لها حكيم: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئتِ فهو لك. فاختارت زيداً، فأخذته، فرآه زوجها محمد عندها، فرقَّ له قلبه، وتحركت في نفسه عواطف الرحمة تجاه الغلام، فاستوهبه منها، فوهبته له، فما كان أسرع من أن أعتقه

---

[1] يقول المؤرخ البريطاني المستشرق (وليم موير) في كتابه السالف (تاريخ محمد): «كان محمد – قبل بعثته – يحيا حياة التحنث، وتأملاته تشغل دون شك كل ساعات لهوه، مع أن أترابه كانوا يقضونها في اللهو المحرم، والحياة المنطلقة من كل قيد، وهذه الشهرة الحسنة والسلوك الشريف، خوَّلاه احترام معاصريه، ولذا كان الإجماع عليه حتى لُقِّب بالأمين». ويقول: «ومهما يكن من أمر، فإن محمداً أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله، وخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمداً في طليعة الرسل ومفكري العالم».

[2] يقول العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه (السيرة النبوية) ملخصاً ما جاءت به روايات السيرة النبوية الصحيحة من شمائل محمد قبل البعثة: «وشبَّ رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى، بعيداً عن أقذار الجاهلية وعاداتها، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقاً، وأشدهم حياءً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة، حتى ما أسموه في قومه إلا الأمين، يعصمه الله تعالى من أن يتورط فيما لا يليق بشأنه من عادات الجاهلية، وما لا يرون به بأساً ولا يرفعون له رأساً. وكان واصلاً للرحم، حاملاً لما يُثقِلُ كواهل الناس، مكرماً للضيوف، عوناً على البرِّ والتقوى، وكان يأكل من نتيجة عمله، ويقنع بالقوت» ص ١٧٠ ط. دار ابن كثير.

[3] الوصيف: الغلام الذي بلغ سن الخدمة.

فخلع عنه رِقَّ العبودية، وضمَّه إلى أسرته، وصار يكرمه إكرام الأب الرحيم لابنه... فعاش زيد في بيت محمد وقد امتلأت نفسه إعجاباً وثقةً بهذا الرجل، ومحبة له.

وكان من خبر زيد هذا أول أمره، قبل أن يصبح عبداً رقيقاً ويباع في سوق النخاسة، أنه كان يعيش مع أمه سعدى، وأبيه حارثة، وكانت سعدى تنتمي إلى قبيلة، وحارثة ينتمي إلى قبيلة أخرى... وذات يوم، خرجت سعدى بابنها زيد إلى قبيلتها لتزيره أهلها.

وحدث أن تعرض أهلها وهي بينهم، إلى غارة من غارات السلب والنهب التي تكثر في البادية... فسلب المغيرون منها ابنها هذا، وذهبوا به فباعوه في سوقٍ من أسواق العرب اسمه (سوق حباشة) وزيد يومئذٍ ابن ثمانية أعوام... ثم اشتراه حكيم بن حزام.

لكنَّ حارثة أبا زيد، لم يهدأ له بال منذ أن سُبي ابنه، وجزع عليه جزعاً شديداً وبكاه.. حتى أنه نظم شعراً تحدث فيه عن مصيبته بابنه فقال:

بكيتُ على زيدٍ ولم أدرِ ما فعلْ ... أَحَيٌّ يُرجَّى أم أتى دونه الأجَلْ

فوالله ما أدري وإني لَسائلٌ ... أغالكَ بعدي السهلُ أم غالك الجبلْ[1]

ويا ليت شعري هل لك الدهرَ أوبةٌ ... فحسبي من الدنيا رجوعُك لي بَجَلْ[2]

تُذكِّرنيه الشمس عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربُها أفلْ[3]

وإن هبَّت الأرواح هيَّجن ذِكره ... فيا طَولَ ما حُزني عليه وما وَجَلْ[4]

سأُعمِل نَصَّ العِيسِ في الأرض جاهداً ... ولا أسأم التطواف أو تسأم الإبلْ[5]

حياتيَ أو تأتي عليَّ منيَّتي ... فكلُّ امرئٍ فانٍ وإن غرَّه الأملْ

---

[1] غال: أهلك.

[2] بجل: بمعنى حسب أي يكفي.

[3] الأفول: غيبوبة الشمس.

[4] الأرواح: جمع ريح.

[5] النص: أقصى السير.

وصار حارثة يذرع طرق الجزيرة العربية متقلباً بين أسواق العرب وأحيائهـــا.. باحثاً عن ولده.. لعله يفوز بخبر عنه..

وبعد طول بحثٍ وعناء.. فاز بالخبر! وعرف أن ابنه في مكة عند واحد من قبيلة قريش. فما كان أسرع من أن خفَّ هو وأخ له إلى مكة، وسألا عن زيد.. فعرفا أنه عند محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فأسرعا إليه..

وعند محمد، التقى حارثة بولده.. ففرح به.. وكان مثل ظَمِئٍ في صحراء، وقع على ماء.. وطلب من محمد أن يردَّ عليه ابنه بما شاء من فِداء.

وأردفتُ: لكنَّ محمداً كان رحمةً للبشر، أتدري أيها الأب ستيفانو ماذا كان ردُّ محمد؟

قال: ماذا كان ردُّه؟

قلت: لقد التفت إلى حارثة وأخيه قائلاً: أَوَ ترضيان بأفضل من الفداء؟ قـــالا: وما هو؟ قال: أدعو زيداً وأُخيِّرُه، فإن اختاركمـــا فـــذاك، وإن اختـــارني رضـــيت ورضيتما. فقال حارثة: لقد أنصفتَ وزدتَ على الإنصاف. فدعا محمد زيداً، فلمـــا جاء، قال له: من هذان؟ فقال زيد: هذا أبي حارثة بن شراحيل، وهذا عمي كعب بن شراحيل. فقال محمد: خيَّرتُك: إن شِئتَ فأقِم عندي، وإن شئت فانطلق معهما!.

وأردفتُ: أتدري أيها الأب ستيفانو بماذا ردَّ الغلام الذي لقي أباه بعدما ضـــاع منه؟

قال: بماذا ردّ الغلام؟

قلت: لقد ردَّ الغلام مخاطباً محمداً الرحيم العطوف قائلاً: بل أُقيم عندك!

وفوجئ حارثة!! فقال لابنه: يا زيد، أتختار العبودية علـــى أبيـــك وأمـــك وبلـــدك وقومك؟! فقال زيد: إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً.

وأردفتُ: أكان الغلام يختار محمداً على أبيه لو لم يجد عنده من الرحمة والبرِّ بـــه فوق ما يجده عند أبيه؟

قال الأب ستيفانو بعد لحظة تأمل: لو كان محمد قبل البعثة فظاً غليظاً قاسياً، لما اختاره زيد على أبيه.

قلت: أوَ تدري ماذا كانت النتيجة؟

قال: النتيجة واضحة، لقد اختار زيد الإقامة عند محمد ولو مع العبودية، على الانطلاق مع أبيه ولو مع الحرية.

قلت: بل أكثر من هذا.

قال: وما ذاك؟

قلت: لقد تجاوزتْ رحمة محمد زيداً إلى أبيه حارثة.

قال: كيف؟

قلت: لقد شعر محمد بأن أبا زيد قد أُصيب بخيبة أمل، بعد الذي عاناه في سبيل عثوره على ولده.. فما كان من محمد تطييباً لخاطر حارثة، إلا أن أخذ بيد زيد، وقام به إلى الملأ من قريش، فقال: اشهدوا يا معشر قريش، أن هذا ابني وارثاً وموروثاً – وكان نظام التبني معمولاً به في الجاهلية قبل الإسلام – فطابت نفس حارثة عند ذلك، وتأكد له أن ابنه لا ضير عليه، وغادر مكة مطمئناً إلى ما صار إليه ولده.

* * *

قال الأب ستيفانو: وماذا كان من أمر زيد بعد ذلك؟

قلت: لقد صار منذ ذاك يدعى زيد بن محمد، وعاش عند أبيه بالتبني على أطيب حال، حتى بُعِثَ رسول الله ﷺ، فصدَّقه زيد، وكان مِن أوَّل مَن أسلم، لمعرفته عن قرب بصدقه ورحمته... وبقي يدعى زيد بن محمد حتى نزلت الآية القرآنية تبين حكم الأبناء بالتبني في الإسلام وتقول: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾[1]، فقال عند ذلك: أنا زيد بن حارثة[2].

---

[1] الأحزاب/٥.

[2] انظر في خبر زيد بن حارثة (السيرة النبوية) لابن هشام ط. دار ابن كثير ص ٢٢٦ – ٢٢٧ والحاشية /٧ فيها – وانظر الروض الأنف للسهيلي /٢٨٦–٢٨٧ ط. دار الفكر – الطبقات الكبرى لابن سعد ٤/٤٠

* * *

**٢- محمد وبناء قريش للكعبة:**

وأردفت قائلاً: وواحدة أخرى.

قال: إني مُصغٍ إليك.

قلت: قبل بعثة محمد بحوالي خمس سنين، أي عندما كان عمره حوالي /٣٥/ عاماً، عزمتْ قبيلة قريش على تجديد بناء الكعبة، وكانوا يَعدّون المشاركة في هذا التجديد شرفاً ما بعده شرف. وحتى لا يختصموا فيما بينهم، تقاسموا هدمها، فتولت كل عشيرة من عشائر قبيلة قريش هدم جزء منها، ثم جمعوا الحجارة لبنائها، كل عشيرة تجمع على حدة.. ثم بَنَوْها.. حتى بلغ البنيان موضع (الحجر الأسود) منها، وكانوا يعظِّمون هذا الحجر.. فاختصموا فيه، كل عشيرة تريد أن تحوز شرف رفعه إلى موضعه، دون غيرها.. حتى وصل الأمر بهم إلى التهيؤ للاقتتال! وتحالف بعضهم ضد بعض! وجاء حِلفٌ منهم بجفنة مملوءة دماً، وغمسوا أيديهم فيها، كناية عن تعاهدهم على الموت إن حاول غيرهم أن يفوز دونهم بشرف رفع الحجر الأسود إلى مكانه في ركن الكعبة، وسُمِّي هؤلاء (لعقة الدم).. وتفاقم الأمر.. وكادت قبيلة قريش أن تتمزق ويقتل بعضها بعضاً..ومكثتْ على ذلك أربع ليالٍ أو خمساً.. ثم إنهم اجتمعوا بجوار الكعبة يتشاورون.. فأشار عليهم أحد حكمائهم فقال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه، أوّل داخل عليكم من هذا الفج - أي الناحية - ليقضي بينكم ويحلّ الخلاف، وترضون بما يقضي به. فرضي الجميع بما قال.. وانتظروا أول داخل عليهم..

وأردفت: أتدري أيها الأب ستيفانو من كان أول داخل عليهم؟.

قال: من؟

---

وصحيح البخاري الحديث رقم /٤٤٠٩/وصحيح مسلم الحديث رقم /٤٤٥١/ومشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٦١٤٢/وقال: متفق عليه.

قلت: لقد كان محمد بن عبد الله هو أول داخل عليهم من ذلك الفج الذي اختاروه.

قال: وهل رضي به الجميع ليحكم بينهم؟.

قلت: بل تصايح الجميع من جنبات المكان قائلين: هذا هو الأمين.. رضينا به.. هذا محمد.

و لم يكن محمد عالماً باتفاقهم.. فلما سألهم عن سبب تصايحهم؟ أخبروه الخبر.. وطلبوا منه أن يحكم بينهم فيما هم فيه.

قال: وبماذا حكم محمد في أمرهم؟

قلت: ما كان أسرع من أن قال لهم: هلمّ إلي ثوباً، فجاؤوه بثوب واسع، فأخذه، فبسطه على الأرض، ثم أخذ (الحجر الأسود) بيده فوضعه وسط الثوب، ثم قال: ليأخذ زعيم كل عشيرة بطرف من أطراف الثوب.. ثم رفعوه جميعاً.. حتى إذا بلغوا به موضعه من ركن الكعبة، تناوله هو من الثوب، ووضعه بيده مكانه، ثم بنى عليه[1].

قال الأب ستيفانو: إن مثل هذا الرجل الحكيم، لا يمكن أن يكون فظّاً غليظاً قاسياً، ولو كان كذلك لما حكّمه قومه بينهم ورضوا بحكمه.

* * *

### ٣- الأعداء يشهدون لمحمد:

قلت: وواحدة أخرى.

قال: هاتها.

---

[1] انظر (السيرة النبوية) لابن هشام ص١٨٥ ط. دار ابن كثير /١٤٢٦/هـ- وانظر (صحيح السيرة النبوية) للألباني /٤٤-٤٥.

قلت: لما جهر النبي ﷺ بالدعوة الإسلامية، أوائل عهد البعثة، ونـــزلت عليـــه الآية القرآنية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] صعد مرتفعَ الصفا بجوار الكعبة، فجعـــل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي،...لبطون قريش، حتى إذا اجتمعوا إليه قال: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقِيّ؟ قالوا: نعم، مـــا جربنا عليك إلا صدقاً..[2]».

وأردفت: أليس هذا اعترافاً صريحاً ممن صاروا أعداء محمد بعد البعثة، بما كـــان عليه محمد قبل البعثة؟.

قال الأب ستيفانو: بلى، وإن هذا الخبر ليصدِّق ما قبله.

* * *

### ٤- الأصدقاء يشهدون لمحمد:

قلت: أأحدثك بأمثلة أخرى تزيد الصورة وضوحاً عن محمد قبل البعثة؟.

قال: على أن توجز وتختصر.

قلت: لك ما تريد: أترى أن إنساناً يَصِل رحمه، ويتفقد أقاربه.. يكون رحيماً أم قاسياً؟.

قال: بل يكون رحيماً.

قلت: أترى أن إنساناً يقرِّب إليه الضعفاءَ والعاجزين عن الكســـب، فيعـــولُهم ويكفيهم مؤونة عيشهم.. يكون رحيماً أم قاسياً؟.

قال: بل يكون رحيماً.

قلت: أترى أن إنساناً يعطي من ماله المتسوِّلين والمعوزين.. يكـــون رحيمـــاً أم قاسياً؟.

قال: بل يكون رحيماً.

---

[1] الشعراء /٢١٤.

[2] انظر صحيح البخاري الحديث رقم /٤٣٩٧ – صحيح مسلم الحديث رقم /٣٠٧.

قلت: أترى أن إنساناً يحتفي بضيوفه ويكرمهم ويبذل لهم.. يكون رحيماً أم قاسياً؟.

قال: بل يكون رحيماً.

قلت: أترى أن إنساناً يسرع لإعانة المنكوبين، ومن نزلت بهم نوائب الأيام.. يكون رحيماً أم قاسياً؟.

قال: بل يكون رحيماً.

قلت: فإذا شهد شاهد عدل بكل هذا لمحمد؟.

قال: من هو هذا الشاهد؟ هل يعرفه حق المعرفة؟.

قلت: أترضى بشهادة زوجته الأولى – خديجة بنت خويلد – التي عاشت معه قبل البعثة وبعدها؟

قال: أجل، فزوجة الرجل أعلم الناس بحقيقته.، لكن على أن تكون هذه الشهادة موثّقة في النصوص الأصلية التي اتفقنا عليها.

قلت: جاء في صحيح البخاري، أن خديجة قالت لزوجها محمد، واصفة خصاله التي عرفتها عنه أيام الجاهلية قبل البعثة: «والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعِين على نوائب الدهر»[١].

وأردفت: أَمِثْل هذا يكون فظّاً غليظاً قاسياً؟.

قال: أشهد أن مثل هذا لا يكون إلا برّاً رحيماً محباً.

* * *

[١] صحيح البخاري الحديث رقم /٣/- وصحيح مسلم الحديث رقم /٢٣١/.

## الفصل الثالث

# تعريف بـــه ﷺ

بعدما رشفنا رشفات من القهوة المرة، تعيننا على متابعة حديثنا بنشاط أكـــبر.. أردف الأب ستيفانو قائلاً: حسبي ما سمعته منك عن مظاهر رحمة محمد قبل البعثـــة، وأود أن أنتقل إلى مظاهر رحمته للبشر بعد البعثة، لكن أودّ قبل أن تحدثني عنـــها، أن تعرِّفني به.. فتُجمل لي شمائله وصفاته بعامة.. بحيث أستطيع أن أستجمع له في ذهـــني صورة محددة، فأعرف أين تقع مظاهر رحمته من تلك الصورة.

قلت: لك ما تريد:

**١ – شمائله ﷺ:**

– كان ﷺ، بسبب التأديب الإلهي الذي يؤدب به الله سبحانه رسله، متخلقـــاً بالأخلاق الحميدة الفاضلة.. الأمر الذي أهّله لأن أثنى الله سبحانه عليـــه في القـــرآن الكريم فقال له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

قال: وما هو الخلُق العظيم الذي كان عليه محمد حتى امتاز به عـــن أخـــلاق العظماء من بني البشر، واستحق به الثناء من ربه؟.

قلت: هذا بحث واسع مستفيض، لو أردت أن أحدّثك عنه لاحتجـــت إلى أن أحدثك عن آداب الإسلام، وعبادات الإسلام، ومعاملات الإسلام.. لكن ألخِّصه لك بجملة واحدة موجزة، رُويت عن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأعرفهم به، زوجته السيدة عائشة. فقد سئلت عن خُلُقه كيف كان؟ فأجابت: «كان خُلُقه القرآن»[2].

---

[1] القلم /٤.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٧٤٦ – ط. فؤاد عبد الباقي – يقول المستشرق (هيدلي) متحدثاً عن الـــنبي ﷺ: «نحن نعتبر أن نبي بلاد العرب الكريم، ذو أخلاق متينة، وشخصية حقيقية، وُزِنت واختُبرت في كل خطوة من خطا حياته، ولم يُر فيها أقل نقص قط.. وربما أننا في احتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، فحياة النبي المقدس تسدّ تلك الحاجة.. حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينـــا التعقـــل

وأردفت: والقرآن معروفٌ مافيه.. متداولٌ بين الناس.. من قرأه قراءة متـــدبرة، وصل إلى ذلك الخلق العظيم الذي تميّز به محمد عن غيره قبل وبعد البعثة، فقد كـــان رسول الله ﷺ قرآناً يمشي على الأرض.

وهنا تنبه الأب ستيفانو وبادر قائلاً: ماذا قلت؟.

قلت: كان رسول الله ﷺ قرآناً يمشي على الأرض.

قال: لقد شوّقتني بهذه العبارة، إلى أن أرى هذا الإنسان القرآن الذي يمشي على الأرض!

قلت: أتحب أن تراه؟.

قال: أجل، ألديك صورة له؟.

قلت: هذا من المحال، لكن هناك ما ينوب عن الصورة.

قال: وما ذاك؟.

* * *

---

الراقي، والسخاء= =والكرم، والشجاعة والإقدام، والصبر والحِلم، والوداعة والعفو، وبـــاقي الأخـــلاق الجوهرية التي تكوِّ ن الإنسانية.. ونرى ذلك فيها بألوان وضّاءة.. خذ أي وجه من وجوه الآداب.. وأنت تتأكد بأنك تجده موضحاً في إحدى حوادث حياته» عن مقدمة كتاب (محمد رسول الله) لآتيين دينيه.

ويقول المستشرق (واشنطن إيرفينغ) في كتابه (محمد وخلفاؤه): « والرسول كان عادلاً يحب العدل، فقـــد كان يعامل الصاحب والغريب، والفقير والغني، والقوي والضعيف، بالتساوي، وكان محبوباً بين النـــاس، بسبب التفاته إلى الكل، وسماعه من الجميع، وعدله المطلق بينهم» ص٤٥٣ ط. /١٩٩٩م.

ويقول المستشرق الفرنسي (إدوار مونتيه) في آخر كتابه (العرب): «عُرف محمد بخلوص النية، والملاطفـــة، وإنصافه في الحكم، ونزاهة التعبير عن الفكر، والتحقق».

ويقول المستشرق الإنكليزي (إدوارد لين) في كتابه (أخلاق وعادات المصريين): «إن محمداً كان يتصـــف بكثير من الصفات الحميدة، كاللطف والشجاعة ومكارم الأخلاق، حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يحكم عليه دون أن يتأثر بما تتركه هذه الصفات في نفسه من أثر».

**٢- صفته ﷺ:**

قلت: لو رجعتَ إلى روايات السيرة النبوية الصحيحة المتداولة بين المسلمين[١]، لوجدتها تتناقل فيما بينها أوصاف رسول الله ﷺ، من مفرق رأسه إلى أخمص قدمه.. حتى أن من يقرؤها تنطبع في مخيلته صورة مكتملة لصاحب تلك الأوصاف.

قال: لو شئتَ لأوجزتها لي.

قلت: حباً وكرامة، إني موجزها لك:

كان رسول الله ﷺ: معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير، وكان عظيم الهامة، يكسو رأسه شعر أسود غزيرٌ رَجِل[٢]، والشعر يحيط بوجه مستدير أزهر اللون، والوجه يعلوه جبين واسع، وتحت الجبين حاجبان أسودان مقوَّسان، وتحت الحاجبين عينان ذواتا شِقٍّ طويل، سوادهما شديد السواد وبياضهما شديد البياض، وتحف بالعينين أهداب طويلة سوداء، وتحت العينين أنف أقنى، وتحت الأنف فم واسع، تحفُّ به لِحية سوداء غزيرة، وترتكز هامته ﷺ على رقبة أقرب إلى الطول، وعلى جانبي الرقبة منكبان ضخمان، وتحت الرقبة صدر عريض، وتحت الصدر بطن يستوي مع الصدر ولا يبرز عنه، وعلى الجانبين تنسدل يدان عبلتان ضخمتا الكفَّين، والجسم يرتكز على رجلين عبلتين ضخمتي القدمين[٣].

---

[١] انظر المقدمة التي كتبها المستشرق (مارسدن جونز) لكتاب (مغازي الواقدي).

[٢] الشعر الرَّجِل: بين الجعْد والسَّبْط.

[٣] هذه الأوصاف مبثوثة في الصحيحين، وفي كتب السيرة بألفاظ معجمية - ومما ورد في وصفه ﷺ، قولُ البراء بن عازب: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم خَلقاً، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير». متفق عليه، البخاري رقم /٢٣٨٥ - مسلم رقم /٤٣١٠. وعن البراء أيضاً قال: «كان رسول الله ﷺ مربوعاً، بعيد مابين المنكبين، له شعر يبلغ شحمة أذنيه، رأيته في حلة حمراء لم أرَ شيئاً قط أحسن منه ﷺ» مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٥٧٨٣ /وقال عنه: متفق عليه.

وعن علي بن أبي طالب أنه قال «كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل ولا بالقصير، ضخم الرأس واللحية، شثن الكفين والقدمين، مشرباً بحمرة،ضخم الكراديس،طويل المسربة، إذا مشى تكفَّأ كأنما ينحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله» مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٥٧٩٠ وقال عنه: صحيح.=

قال: لقد وصفتَ رجلاً مفعماً بالقوة والجمال.

قلت: هو ذاك.

قال: وأستطيع بعدما سمعت من وصفك، أن أضيف إلى عبارتك السالفة فأقول: لقد كان محمد قرآناً قوياً يمشي على الأرض.

قلت: لقد أنصفتَ.

قال: فما بال المسلمين اليوم، يمشون على الأرض وكأنهم قرآن ضعيف؟!

قلت: إن القرآن لا يضعف، بل هو محفوظ بحفظ الله له، كما قال عنه سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. لكننا نحن المسلمين اليوم، ابتعدنا عن القرآن فضعفنا وضعفت مسيرتنا.

قال: صدقتَ، إن المسافة بينكم، أيها المسلمون، وبين قرآنكم، هي ميزان قوتكم وضعفكم، فكلَّما قصَّرتموها سرتم في طريق القوة، وكلَّما أطلتموها سرتم في طريق الضعف. واحذروا، فإن عدوكم يعلم هذا منكم، وقد أعلن هذا صراحةً على ألسنة الكثير من أهل الغرب، ولعل أشهر قول في هذا الشأن، هو ماقاله (جلادستون) رئيس وزراء بريطانيا عام /١٨٨٢/ م في مجلس العموم البريطاني، قال وهو يرفع القرآن بيده: «مادام هذا القرآن موجوداً في أيدي المسلمين، فلا تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق»[2].

---

=وعن أبي هريرة قال: «كان ﷺ شبح الذراعين، أهدب شفار العينين، بعيد مابين المنكبين، يُقبِل جميعاً ويُدبِر جميعاً لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا صَخَّاباً في الأسواق» السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٠٩٥/.

وانظر حديث هند بن أبي هالة في وصف خَلق وخُلق النبي ﷺ عن الحسن بن علي في (دلائل النبوة للبيهقي) الحديث /٢٣٦/، وبعده حديث علي بن أبي طالب عن الحسين بن علي، الحديث /٢٣٧/ فهما من أجمع ما روي في هذا الباب – إن صحَّا –.

[1] الحجر /٩/.

[2] عن كتاب (ماذا يقول الغرب عن محمد) لأحمد ديدات ص ٩.

قلت: لقد أنصفتَ وأسمعت، فلعل هناك من يسمع! [1].

*   *   *

**٣- لباسه ﷺ:**

قال: لو عدنا إلى وصف محمد، ألا تحدثني عن لباس هذه الشخصية القوية الجذابة، حتى تكتمل الصورة في مخيلتي؟.

قلت: بلى أحدِّثُك: كان ﷺ يلبس على رأسه عمامة يرخي لها عَذَبَة[2] بين كتفيه.

قال: ما لونها؟

قلت: غالباً ما تكون بيضاء، وقد تكون صفراء أو سوداء.

قال: ثم ماذا؟

قلت: أما ثوبه فغالباً ما يكون من خشن القماش، وغالباً ما كان يلبس ثوباً واحداً مخيطاً يصل إلى نصف ساقيه أو أدنى قليلاً، بحيث يكون فوق كعبيه، وتحت الثوب إزار[3] أو سروال.

قال: وما لون ثوبه؟

قلت: غالباً ما يكون أبيض، وقد يكون أسود أو أحمر أو أصفر، وقد يكون ذا خطوط.

قال: وماذا كان ينتعل؟

---

[1] تقول المستشرقة الإيطالية (لورافيشيا فاغليري) في كلامها على القرآن الكريم: «إلى هذا المصدر الصافي دون غيره سوف يرجع المسلمون، حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس، فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب» عن كتاب (المستشرقون والقرآن الكريم) لمحمد أمين حسن بني عامر ص٢٨٩.

[2] العَذَبَة: ما سُدِل من قماش العمامة بين الكتفين، الجمع عَذَبات.

[3] الإزار: ما يستر أسفل البدن.

قلت: كانت له نعلان من جلد مدبوغ، مكشوفتان من الخلف، ولهما من الأمام شِراك وقِبالان يُدخِل أصابع قدميه فيهما.

قال: حسبي فقد اكتملت الصورة في مخيلتي[1]، لقد وصفتَ لباساً متواضعاً أشبه بلباس النسَّاك والزاهدين.

* * *

### ٤- البيئة التي عاش فيها ﷺ:

واستدرك قائلاً: لكنْ ألا ترى معي أن هذه الصورة بحاجة إلى إطار يحيط بها؟.

قلت: ماذا تقصد؟

قال: الإطار الذي أقصده لصورة محمد، هو تلك البيئة الاجتماعية التي كانت تحيط به، والتي عاشت فيها هذه الشخصية الفذة المتواضعة، مطلعَ القرن السابع المسيحي، ألا حدثتني عنها بإيجاز؟.

قلت: أتريد البيئة الاجتماعية العالمية آنذاك، أم البيئة الاجتماعية العربية؟

قال: أريد العربية، أما العالمية فأنا أعرف الفساد الذي كانت تتخبط فيه المجتمعات آنذاك، من فارسية ورومية وغيرها[2]...

قلت: لو رحتُ أحدثك عن البيئة الجاهلية للمجتمع العربي، لطال بنا الأمر، لكن أُحَدِّثُك بوصفٍ موجزٍ جاء على لسان واحد ممن عاشوا في تلك البيئة ثم قُدِّر له أن ينتقل منها إلى البيئة الإسلامية، فجاء كلامه مقارنة بين المجتمع الجاهلي العربي وبين المجتمع الإسلامي الذي أظهره الله سبحانه على يد محمد ﷺ.

قال: هذا ما أرمي إليه.

قلت: تروي كتب السيرة النبوية في الخبر الصحيح: أن النجاشي - ملك الحبشة - استدعى إلى بلاطه وفداً من مهاجري المسلمين إلى بلاده[1] ليسألهم عن هذا النبي

---

[1] صفة لباس النبي ﷺ مبثوثة في الصحيحين وكتب السيرة.

[2] انظر في هذا، البابَ الأول من كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي - وانظر الفصل الأول من (السيرة النبوية) للمؤلف ذاته.

الجديد الذي ظهر في بلدهم مكة فاتبعوه وفارقوا وطنهم لأجله، فقدَّم وفدُ المسلمين جعفرَ بن أبي طالب ليتكلم باسمهم، وليجيب النجاشي على سؤاله.. فتكلم جعفر أمام النجاشي فقال: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القويُّ منا الضعيف. فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله عز وجل، لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دون الله، من الحجارة والأوثان. وأمَرَنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمَرَنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً. وأمَرَنا بالصلاة والزكاة والصيام... فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله»[2].

* * *

قال الأب ستيفانو: لقد أفدتني أفادك الله، وعرَّفتني موجزاً يصف محمداً ودينه ومجتمعه، وأنرتَ لي سبيل بحثي، ولو عدتُ الآن إلى (مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد) فلن أَرِدَهَا خالي الوفاض.

وهنا نظر جاري (الأب نقولا) إلى ساعته وقال:

- هل لي أن أُعيد اقتراح الأمس، فنكتفي بما دار من حديث هذه الليلة.. على أن نتابع مساء غدٍ عند الساعة التاسعة؟

قلت: إن رغبتما هذا فلا بأس.

فقال الأب ستيفانو: لكني أشترط شرطاً.

قلت: وما هو؟

---

[1] تتابع كثير من أوائل المسلمين مهاجرين إلى الحبشة هرباً من صنوف الأذى والتعذيب التي أنـزلها بهم كفار قريش.

[2] (السيرة النبوية) لابن هشام ص ٢٩٧-٢٩٨ ط.دار ابن كثير - وانظر (الروض الأنف) للسهيلي ٢ /٨٧ ط. دار الفكر - وقد خرَّج هذا الخبر المحدِّث الألباني في (فقه السيرة) للغزالي ١/١١٥ وقال عنه: صحيح.

قال: أن نتابع غداً حديثنا حتى ننتهي منه، فأنتم تقولون في المثل (العرب عند ثلاث) وغداً ثالث أيامنا، وليس من اللائق بنا أن نزيدك على ثلاث.

قلت: لك ما تريد، وعلى بَركة الله.

ونهض الضيفان متهيئَين للخروج.. فشيعتهما إلى باب المنزل.. وخرجا مودِّعَيْن..

* * *

## الفصل الرابع

## مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد ﷺ بعد البعثة

### – مدرسة الرحمة:

مساء اليوم التالي، وعند الساعة التاسعة، رن جرس منزلي، ففتحت الباب، واستقبلت الضيفين الكريمين مرحِّباً بهما..

ولما استقر بنا المجلس، بعد بعض المجاملات.. وبعد أداء واجب إكرام الضيف.. بدأ الأب ستيفانو متابعاً حديث الأمس فقال:

– لا أكتمك أنني كنت أستروح مظاهر الرحمة للبشر في شخصية محمد، بل وفي شخصية كل عربي، منذ قرأت في سابق أيامي عبارةً لأحد المؤرخين الغربيين الناهين[1] تقول: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب»، ولقد وجدت فيها إشادة بعنصر الرحمة عند الجنس العربي كله، لأن الفاتحين من العرب كانوا يمثلون هذا الجنس بكل أطيافه.

قلت: إنَّ كل عربي يقرأ هذه العبارة، لا بد أن تفيض نفسه بالشكر والامتنان لصاحبها، على ما يُكنُّه من مشاعر نبيلة تجاه العرب. لكن لو استبطن صاحب هذه العبارة حقيقة التاريخ، لقال بدلاً منها: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من تلاميذ مدرسة محمد».

قال: ولِمَ هذا التصحيح لعبارةٍ وُضعت في معرض المدح والثناء؟

قلت: لأن العرب قبل محمد ﷺ، كانوا بُداةً جُفاة، تدور بينهم الحروب الطاحنة من أجل بعير... من أجل حصان... من أجل رهان... وكان منهم من يئد البنات ويدفِنُهُنَّ أحياء تخلصاً من أن يُقال: رُزَق فلان بنتاً و لم يُرزق ولداً! وفي هؤلاء تقول الآية القرآنية: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ{٥٨} يَتَوَارَى

---

[1] هو المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب).

مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾[1]، وكان عندهم من القسوة مثل ما عند غيرهم من الشعوب الأخرى[2]... فلما بُعث رسول الله ﷺ، تغيرت حالهم رأساً على عقب... لقد دخلوا مدرسة محمد جُفاةً قُساةً... فلما تخرجوا فيها، إذا هم أرحم أمة عرفها تاريخ الفتوحات[3].

قال: إذاً مدرسة محمد هي التي علَّمت الفاتحين العرب الرحمة؟.

قلت: أجل.

قال: هل لك أن تحدثني ماذا كان يعلِّم محمد في مدرسته هذه[4]؟

قلت: لم يكن يعلم فيها سوى الرحمة.

قال باستغراب: كيف هذا!؟ وقد خرجوا منها بِدينٍ مكتمل، نشروه في أصقاع الأرض، ودانت به الشعوب؟!

قلت: أتدري ما هو الدين الذي علَّمه محمد الناسَ في مدرسته؟

---

[1] النحل /٥٨-٥٩/.

[2] يقول الأديب العالمي (تولستوي) /١٨٢٨-١٩١٠م/: «يكفي محمداً فخراً أنه خلَّص أمة دمويَّة من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وإن شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

[3] يقول المستشرق الفرنسي (غوستاف دوكا) في كتابه (تاريخ فلاسفة المسلمين وفقهائهم): «للدين الإسلامي أثر كبير في تهذيب الأمم وتربية مشاعرها ووجدانها، وترقية عواطفها، فإذا قرأت تاريخ العرب قبل البعثة، وعلمت ما كانت عليه، اعتقدت أن للشريعة السمحة في تهذيب الأخلاق التأثير الأكبر، إذ ما كاد يتصل بالأمة العربية ذلك الإصلاح الروحي المدني، حتى انتشر العدل، وزال النفاق والرياء والعدوان». ويقول المستشرق الفرنسي (إدوار مونتيه) في آخر كتابه (العرب): «لقد وجَّه محمد العرب إلى حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسس لهم دولة زمنية ودينية لا تزال إلى اليوم».

[4] تقول المستشرقة (آن بيزيت) في كتابها (حياة وتعاليم محمد): «من المستحيل لأي شخص يدرس حياة وشخصية نبي العرب العظيم، ويدرس كيف عاش هذا النبي وكيف علَّم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل، أحد رسل الله العظماء، وبرغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من الناس، فإنني أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء، بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم».

قال: هو الإسلام.

قلت: والإسلام هو دين الرحمة فقط، لا شيء غيرها.

قال: كيف؟ أفصح.

قلت: يقول الله تعالى في القرآن الكريم مخاطباً رسوله محمداً ﷺ، ومبيناً سبب إرساله إلى الناس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] أترى في هذه الآية شيئاً غير الرحمة يُطلب من رسول الله أن يقدمه للبشر؟

قال: بل هي تحصر الغاية والهدف من رسالة محمد، في الرحمة فقط.

قلت: أتدري ما معنى هذا؟

قال: ما معناه؟

قلت: معناه أن جميع ما جاء به محمد ﷺ مُرسلاً من عند ربه، وجميع ما اشتملت عليه رسالته من عبادات ومعاملات، وآداب وأخلاق، وحقوق وواجبات... كل ذلك إنما هو مبني على أساس الرحمة للبشر كافة!.

وأردفت: بل حتى العقوبات الشرعية، من حدود وقصاص وتعزير... إنما هي رحمة للبشر، لما فيها من قطعٍ لدابر الشر، ومنعٍ للفساد من أن يستشري في المجتمعات... بينما هو يستشري اليوم كما تعلم، بسبب التشريعات والقوانين التي وضعها المُشرِّعون من البشر بأنفسهم، منصرفين عما شرع الله سبحانه للناس كافة[2].

---

[1] الأنبياء /١٠٧.

[2] يقول المستشرق (هيدلي): «لو أصبح كل فرد في الامبراطورية الانكليزية محمدياً حقيقياً بقلبه وروحه لأصبحت إدارة الأحكام أسهل مما هي عليه، لأن الناس عندئذ سيعملون بدين حقيقي» عن مقدمة كتاب (محمد رسول الله) لآيتين دينيه.

ويقول برنارد شو: «وفي رأيي أنه لو تولى – محمد – أمر العالم اليوم، لوفّق في حل مشكلاتنا بما يؤمّن السلام والسعادة التي يرنو إليها البشر».

ويقول الفرنسي (ليون روش) في كتابه (ثلاثون عاماً من الإسلام): «لقد وجدت دين الإسلام أفضل دين عرفته، فهو دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي، و لم يذُر بخلدي شيء من قوانيننا الوضعية إلا وجدته=

قال: أنا أتفق معك في هذا، وحبَّذا لو حدثتني عن الطريقة التي كان محمد يعلِّم بها الناسَ الرحمةَ في مدرسته.

* * *

**– الطريق إلى الرحمة في مدرسة محمد ﷺ:**

قلت: لقد كان ﷺ يَدلُّ الناس أولاً على الطريق إلى الرحمة... فيعلمهم أن التواضع والرفق هما سبيل الإنسان إليها.

قال: حدثني أولاً عن تعليمه الناسَ التواضع.

قلت: لقد رُوي عنه أنه قال: « إن الله أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد »[1].

وكان يضرب لهم مثلاً من نفسه فيقول: « إن الله جعلني عبداً كريماً و لم يجعلني جباراً عنيداً »[2].

وكان يطلب من الناس أن لا يبالغوا في أمره و يقول: «يا أيها الناس، لا ترفعوني فوق قدري، فإن الله اتخذني عبداً قبل أن يتخذني نبياً»[3].

بل هو لم يرضَ ذلك منهم عندما همُّوا بتعظيمه! فقد رُوي أن رجلاً قال: يا محمد، يا سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس عليكم بتقواكم، ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد بن عبد الله، عبدُ الله ورسولُه، ما أُحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل»[4].

---

=مسنوناً في الإسلام. بل إنني عدتُ إلى التشريع الذي يسميه غول سيمون (التشريع الطبيعي) فوجدته أُخِذ من الشريعة الإسلامية».

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٥٧٠.

[2] المرجع السابق – الحديث رقم/٣٩٣.

[3] المرجع السابق الحديث رقم /٢٥٥٠.

[4] المرجع السابق الحديث رقم/١٠٩٧.

بل هو نهى الناس حتى عن إطرائه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدُ الله، فقولوا عبد الله ورسوله»[1].

وكان ﷺ بعد هذه الأمثلة التي يضربها للناس من نفسه، يبشِّر كل من أخذ بها بحسن العاقبة ويقول: «ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[2].

وبرغم تواضعه الجم فقد كان ﷺ ذا هيبة ووقار، جاءه رجل مرة فارتعد من هيبته! فقال له رسول الله ﷺ على عادته في التواضع: «هوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد – اللحم المجفف في الشمس –»[3].

* * *

قال الأب ستيفانو: حسبي عن تعليمه الناس التواضع، حدثني عن تعليمه إياهم الرفق.

قلت: كان ﷺ يعلِّم الناس في مدرسته الرفق فيقول: «ما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه»[4].

بل هو علَّم الناس في مدرسته أن الرفق صفة من صفات الله عز وجل، ومظهر من مظاهر رحمته تعالى، فقال ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف»[5].

وأردفت: والرفق هو تيسير الأمور على النفس وعلى الآخرين في حدود ما يسمح به الشرع... وانطلاقاً من مبدأ الرفق هذا، كان شعار مدرسته ﷺ «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تُنَفِّروا»[6].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٣١٨٩.

[2] صحيح مسلم – الحديث رقم /٤٦٨٩.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٨٧٦.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٥٩٤.

[5] صحيح البخاري – الحديث رقم /٦٩٢٧/– صحيح مسلم – الحديث رقم /٢٥٩٣.

[6] صحيح الترغيب والترهيب للألباني – الحديث رقم /٢٦٧٤ وقال عنه: صحيح رواه البخاري ومسلم.

* * *

**- مصدر الرحمة في مدرسة محمد ﷺ:**

قال الأب ستيفانو: حسبي هذا من الطريق إلى الرحمة، أريد أن أصل إلى الرحمة ذاها، كيف كان محمد يعلّمها في مدرسته؟

قلت: لك ما تريد، لكن أودُّ أن أذكر لك أمراً أولاً؟

قال: ما هو؟

قلت: ألا تودُّ أن تعرف المصدر الذي تعلم منه محمد ﷺ الرحمة حتى استطاع أن يعلِّمها الناس؟

قال: بلى والله؟

قلت: أنت تعلم أن الكتاب الذي أُنـزل على محمد ﷺ وعلَّمه الإسلام كلـه، هو القرآن الكريم.

قال: أجل أعلم هذا.

قلت: أتدري كم مرة تكررت كلمة الرحمة ومشتقاها ، في القرآن الكريم؟

قال: لا.

قلت: اعدد معي إذاً:

١ - تكرر الاسم (رحمة) في القرآن، اسماً مفرداً /٧٩/ مرة.

٢ - تكرر الاسم (رحمة) مضافاً إليه الضمائر /٣٥/ مرة.

٣ - تكرر اسم (الرحمن) /٥٧/ مرة.

٤ - تكرر اسم (الرحيم) /١١٥/ مرة.

٥ - تكرر جمع المذكر السالم (الراحمين) /٦/ مرات.

٦ - تكرر جمع التكسير (رحماء) مرة واحدة.

٧ - تكرر اسم (المرحمة) مرة واحدة.

٨ - تكرر اسم التفضيل (أرحم) /٤/ مرات.

٩ – تكرر الفعل (رحم) ماضياً /٨/ مرات.

١٠ – تكرر الفعل (يرحم) مضارعاً /١٥/ مرة.

١١ – تكرر الفعل (ارحم) أمراً /٥/ مرات[١].

ثم أردفت: علامَ يدلُّ هذا؟

قال: لو قرأتُ القرآن، ووجدت فيه كل هذا... لتأكد لي أنه كتاب يتعلّم منه المسلمون الرحمة.. ولتأكّد لي صحة ما قاله المستشرق الألماني القس (ميشون) في كتابه (سياحة دينية في الشرق).

قلت: وماذا قال القس ميشون؟

قال: بعدما رأى ميشون المودَّة والتعاطف والرحمة السائدة في المجتمع الإسلامي قال: «إنه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التسامح، وفضائل حسن المعاملة، وهما أقدس قواعد الرحمة والإحسان عند الشعوب»[٢].

وأردف: لقد تبيَّن لي الآن سرُّ ما رآه القس ميشون في المجتمع الإسلامي.

قلت: فإذا كان القرآن الكريم يعلِّم المسلمين جميعاً الرحمة، فكيف بنبي المسلمين الذي أُنــزل عليه القرآن، ألا يتعلم منه؟

قال: أنا أتفق معك في هذا، وأود أن أعرف كيف صَدَرَ محمد بالرحمة عن هذا المورد، ثم توجه بها إلى الناس في مدرسته.

قلت: لقد توجه رسول الله ﷺ بالرحمة التي فطره الله عليها ثم أتم تعليمه إياهـــا بالقرآن. توجه بها إلى الناس على صورتين:

– رحمة عامة موجهة إلى البشر جميعاً.

– رحمة خاصة موجهة إلى فئات محددة من البشر، يَنْعَم بها كل من اعتنق دين الإسلام وصار عضواً في المجتمع الإسلامي.

---

[١] انظر مادة (رحم) في (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) لمحمد فؤاد عبد الباقي.

[٢] ص٣١ وانظر كتاب (أوربا والإسلام) د. عبد الحليم محمود ص ٨٠.

وفي كلتا الرحمتين تجد محمداً ﷺ يعلِّم الناس متخذاً من نفسه معلِّماً وقدوة في آن.

*    *    *

**– رحمة عامة:**

قال الأب ستيفانو: حدثني أولاً عن الرحمة العامة، كيف علَّمها محمد في مدرسته؟.

قلت: عنوان هذه الرحمة التي تعمُّ البشر جميعاً، هو الآية القرآنية التي سلف أن ذكرها لك: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] .

وجاء عنه ﷺ أنه قال: «خاب عبدٌ وخسر لم يجعل الله في قلبه رحمةً للبشر»[2].

قال: أجل والله، خاب وخسر، هذا دعاء على القساة الجفاة. هذه واحدة، والثانية؟

قلت: وجاء عنه أنه قال: «من لا يَرحَم لا يُرحم، ومن لا يَغفر لا يُغفر له»[3].

قال: أجل والله، العين بالعين، هذا هو الجزاء العادل للقساة الجفاة. والثالثة؟

قلت: وجاء عنه أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن – تبارك وتعالى – ارحموا مَن في الأرض يرحمكم من في السماء»[4].

قال: أجل والله، هذه بشرى للرحماء. والرابعة؟

قلت: وجاء عنه أنه قال: «والذي نفسي بيده، لا يضع الله رحمته إلا على رحيم.قالوا كلنا يرحم. قال: ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة»[5].

---

[1] الأنبياء /١٠٧ – يقول المستشرق (ماكس فان برشم) في مقدمة كتابه (العرب في آسيا): «الحقُّ أن محمداً هو فخر للإنسانية جمعاء، وهو الذي جاءها يحمل إليها الرحمة المطْلقة، فكان عنوان بعثته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾».

[2] سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٤٥٦/.

[3] المرجع السابق الحديث رقم /٤٨٣/.

[4] المرجع السابق الحديث رقم /٩٢٥/.

[5] المرجع السابق الحديث رقم /١٦٧.

قال: إي والله، الرحمة الحقيقية هي ما تتعدى القريب إلى البعيد.. بل إلى الناس جميعاً.

قلت: أترى المقصود بالرحمة في هذه الأحاديث النبوية، فئة معينة من النـــاس أم البشر عامة؟

قال: بل هذه رحمة تعمُّ الناس جميعاً..

* * *

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: أظنك الآن ستحدثني عن الرحمة الخاصة التي تَوَجَّه بها محمد إلى البشر في المجتمع الإسلامي.

قلت: أجل.

قال: هل لك أن تحدثني قبل هذا عن المجتمع الإسلامي الذي بناه محمد وأرسى قواعده، أَبَنَاه على أسس الرحمة أم على أسس العنف؟ كيف بنى محمد هذا المجتمع؟.

قلت: لقد بناه على الرحمة ممزوجة بالمحبة.

قال: كيف هذا؟ كيف تجلَّت مظاهر الرحمة الممزوجة بالمحبة في بناء هذا المجتمع؟ ليتك توضح لي هذا بنصوص أصلية.

* * *

**– مجتمع الرحمة:**

قلت: إن أهم مظهر للرحمة يبديه الراعي الرحيم تجاه رعيته، هو أن يعلِّمهم بناء مجتمع الودِّ والتراحم والصفاء، وهذا هو عين ما دعا إليه محمد ﷺ رعيته بقوله: «مَثَلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[1].

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/ ٧٣.

وكان يرشد رعيته إلى كيفية تمتين هذا البناء فيقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

قال الأب ستيفانو: هذا قول جميل، لكن كيف تطبِّقه الرعية في الواقع؟

قلت: لقد علَّم ﷺ رعيته كيف تطبِّقه فقال: «ما مِن مسلمَين يلتقيان، فيتصافحان، إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا»[2]، وقال: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة»[3]، وقال مخاطباً رعيته: «لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم»[4]، وقال: «الدين النصيحة. قالوا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[5].

وأردفت: بهذا المنهج بنى رسول الله ﷺ مجتمع الرحمة والمحبة.. بالكلمة الطيبة، وبالمصافحة الودود، وبالمحبة الصادقة، وبإفشاء السلام، وبنصيحة المسلمين بعضهم بعضاً.. أيكون مثل هذا المجتمع فظاً قاسياً؟

قال الأب ستيفانو: إن مجتمعاً بُني على هذا، وإنَّ مدرسةً علَّمت هذا، لن يخرج منهما إلا كل بَرٍّ رؤوفٍ رحيم.

* * *

قلت: ثم إن على الراعي الرحيم تجاه رعيته، أن يشيع الأمن فيما بينها، وهذا ما دعا إليه رسول الله ﷺ فقال: «أفضل المسلمين من سَلِم المسلمون من لسانه ويده»[6].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٠٨٣.

[2] المرجع السابق الحديث رقم /٥٢٥.

[3] (تخريج أحاديث الإحياء) للعراقي الحديث رقم /٨٧٢/ وقال عنه: متفق عليه.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم /٨١.

[5] صحيح مسلم – الحديث رقم /٨٢/.

[6] (تخريج أحاديث الإحياء) للعراقي الحديث رقم/١٨٤٣ وقال عنه: متفق عليه.

وقال: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَن أمِنَه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[1].

وجاءه مرة أحد المسلمين يسأله عن أفضل الأعمال التي تقربه من الله سبحانه، فأرشده إلى بعض تلك الأعمال الصالحة.. فقال السائل: فإن لم أستطع – أي أن أفعلها – فقال رسول الله ﷺ: «تَدَعُ الناس من الشر، فإنها صدقة تصَّدّق بها على نفسك»[2].

وأرشد رعيته ذا ت مرة إلى ضرورة بثِّ الصدقة في المجتمع الإسلامي.

وهنا بادر الأب ستيفانو سائلاً: وهل كان هذا المجتمع فقيراً إلى هذا الحد؟

قلت: على رِسْلك، فالصدقة في المجتمع الإسلامي يقدِّمها الفقراء أكثر من الأغنياء.

فقال متعجباً: كيف؟!

قلت: عندما أرشد ﷺ رعيته إلى ضرورة بثِّ الصدقة في المجتمع المسلم قال: «على كل مسلم صدقة. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فيعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق. قالوا: فإن لم يستطع؟ قال: فيعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: يأمر بالخير. قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: فيمسك عن الشر فإنها صدقة له»[3].

وأردفتُ: وبمثل هذه الرحمة الإرشادية، التي تنفِّر من الشر وترغِّب بالخير، استطاعت الرعية أن تتغلب على الشر.. وشاع الأمن في المجتمع الإسلامي[4].

* * *

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٥٤٩.

[2] صحيح البخاري: الحديث رقم/٢٣٣٤.

[3] صحيح البخاري: الحديث رقم /٥٥٦٣ – صحيح مسلم: الحديث رقم /١٦٧٦.

[4] كان من نتيجة هذا الأمن أن صار أصحاب الحوانيت من التجار يتركون بضائعهم معروضة أمام الحوانيت ليلاً ويبيتون في بيوتهم، دون أن تمسها يد بسوء، وما زال هذا شائعاً حتى اليوم في البلدان التي تطبق الشريعة الإسلامية، وقد شاهدته في المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٩ م.

قال الأب ستيفانو: ما أجمل أن يتحقق ويسود الأمن بلا جهاز مخـــابرات، ولا وزارة داخلية.. بل بكلمات طيبة مليئة بالودِّ والرحمة! لكنَّ هذا يتحقـــق إن كانـــت الرعية خالية من عناصر السوء، وهذا لا يكون.

قلت: إن رحمة النبي ﷺ برعيته، لم تُغفل وجود عنصر السوء فيها، ولقد عـــالج ﷺ هذا فقال: «مَن أكَلَ برجلٍ مسلم أكلةً فإن الله يطعمه مثلها من جهـــنم، ومـــن اكتسى برجل مسلم ثوباً فإن الله يكسوه مثله في جهنم، ومن قام برجل مسلم مقـــام سُمعة فإن الله يقوم به مقام سمعة يوم القيامة»[1].

وأردفتُ: وبمثل هذا الإرشاد.. انتفى عنصر السوء من نفوس الرعية أو كاد.

قال: لقد استطاع محمد أن يجعل من ضمير كل مسلم مراقباً لا يفارقه!.

* * *

قلتُ: ثم على الراعي الرحيم أن لا يهمل الأماكن العامة التي تتواجد فيها رعيته، وبخاصة الطرقات.. وهذا مالم يهمله رسول الله ﷺ في بناء المجتمع الإسلامي، فقـــد حدَّث صاحبُه أبو هريرة قال: «قلت: يانبي الله، علمني شيئاً أنتفع به، قـــال: اعـــزل الأذى عن طريق المسلمين»[2].

وأردفتُ: أرأيت؟! لقد جعل هذا الرحيم برعيته، مِن مهنة مَن نسمِّيه (القمَّام أو الزبَّال) مهنةً تشفع لصاحبها وتنفعه عند الله سبحانه، وكان هذا كافياً لأن يُقبِل كل مسلم على إماطة الأذى عن الطريق، سواء أكان من خاصة المسلمين أم من عامتهم.

أما إن وُجد عنصر السوء هنا، فقد عالج ﷺ أمره بقوله: «من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم»[3].

وأردفتُ: وهكذا حُفِظَت الطرقات بلا حرس ولا عسس!.

فقال بإعجاب: وأين الحرس والعسس من شرطي الضمير؟!.

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٩٣٤.

[2] (تخريج أحاديث الإحياء) للعراقي – الحديث رقم /١٨٤٦ وقال عنه: أخرجه مسلم.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٢٢٩٤.

*   *   *

قلت: ثم على الراعي الرحيم أن لا يُعنِت رعيته، وأن لا يكلِّف أحداً فوق طاقته، وقد خشي رسول الله ﷺ أن يأمر المسلمين بما ليس في طاقتهم فِعلُه فقال: «فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماااستطعتم»[١].

وكان دائماً يحاول أن يجنِّبهم صعاب الأمور، إن كان السهل ميسراً، ويعطيهم مثلاً من نفسه. فقد روي عن زوجته السيدة عائشة أنها قالت: «ما خُيِّر رسول الله بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه»[٢].

قال الأب ستيفانو مؤكِّداً: إن التيسير على الرعية هو من أهم مظاهر الرحمة بها.

*   *   *

قلتُ: و الراعي الرحيم يتجاوز عن أخطاء رعيته تجاهه.. وهكذا كان رسول الله ﷺ، فقد روى عنه صاحبه وخادمه أنس بن مالك قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه بُرد – ثوب – نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة! حتى نظرتُ إلى صفحة عاتقه وقد أثَّر بها حاشية البُرد من شدة جبذته! ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه النبي ﷺ، ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء»[٣].

قال الأب ستيفانو: تُرى لوأن محمداً قابل الإساءة والخشونة والغلظة بمثلها، أما كان يرتدع مثل هذا الأعرابي، ويتهيب أن يتصرف على هذا النحو الفظ الغليظ؟

قلت: وأين أنت من آيات القرآن الكريم التي تدعو النبي ﷺ والمسلمين جميعاً إلى الصفح والعفو والمغفرة؟ تقول الآية القرآنية: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّـهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

---

[١] صحيح البخاري: الحديث رقم /٧٢٨٨ – صحيح مسلم: الحديث رقم /١٣٣٧.

[٢] صحيح البخاري: الحديث رقم /٣٢٩٦ – صحيح مسلم: الحديث رقم /٤٢٩٤.

[٣] صحيح البخاري: الحديث رقم /٥٣٦٢ – صحيح مسلم: الحديث رقم /١٧٤٩.

[٤] المائدة /١٣.

و تقول الآية القرآنية: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[3].

وأردفتُ: ثم لو قابل الإساءة والخشونة والغلظة بمثلها، لما وُصِف بالرحمة، ولما رأيتَ اليوم مسلماً على وجه الأرض.

قال: كيف هذا؟.

قلت: هذا ماتقوله الآية القرآنية مخاطبة النبي ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[4] أي لانتهى أمر الإسلام من حيث بدأ، فالإسلام دين لا ينتشر بين الناس إلا بالتي هي أحسن، بالكلمة الطيبة، وبالفعل الرحيم.

قال:صدقت.

* * *

**– أبواب الرحمة في مدرسة محمد ﷺ:**

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: حسبي ما حدثتني به عن مجتمع الرحمة الذي بناه محمد فأحسن البناء، واعدل بي الآن إلى الرحمة الخاصة التي تَوَجَّه بها محمد إلى فئات هذا المجتمع المسلِم، كيف علَّمها محمد الناسَ في مدرسته؟.

قلت: هذه الرحمة ذات أبواب.

قال:حدثني عنها باباً باباً.

قلت: حباً وكرامةً.

---

[1] التغابن /١٤.

[2] النور /٢٢.

[3] الحجر /٨٥.

[4] آل عمران /١٥٩.

**١- رحمته في التعامل:**

وأردفت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمة في التعامل، وإنَّ مَن يمعن النظر في تعامل الناس بعضهم مع بعض، يدرك أن التعامل المالي هو الأساس في أغلب صور التعامل البشري على اختلافها وتنوعها، لذلك وُجِّهَت إليه في الإسلام عناية لا مثيل لها، مبنية على مظهرين من مظاهر الرحمة هما: السماحة في الخُلُق، والعدالة.

أما السماحة في الخُلُق، فهي مقصودة في مدرسة محمد ﷺ سواء أكان الإنسان متموِّلاً أم غير متموِّل. فقد روي عنه ﷺ أنه قال مرة لمن حوله: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرحَت عليه، ثم طرح في النار»[1].

فهذا حال من يأبى السماحة في الخُلُق، من لا يرحم الآخرين في تعامله معهم، ليس له من اعتناقه الإسلام سوى الاسم. أما الذي يرحم الآخرين في تعامله معهم، فهو الذي يستحق رحمة الله، قال ﷺ: «رَحِمَ الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»[2].

قال الأب ستيفانو: أكان محمد يعطي على هذا مثالاً من نفسه؟.

قلت: أجل، فقد روي عنه أنه كان لرجل عليه سِنٌّ من الإبل،فجاءه الرجل يتقاضاه، فقال ﷺ: أعطوه. فطلبوا سِنَّه فلم يجدوا إلا سِناً فوقها، فقال: أعطوه. فقال الرجل: وفَّيتني وفَّى الله بك، فقال ﷺ: « خياركم أحسنكم قضاءً »[3].

---

[1] صحيح مسلم – الحديث رقم /٤٦٧٨.

[2] صحيح البخاري – الحديث رقم /١٩٣٤.

[3] صحيح البخاري – الحديث رقم /٢٢١٨.

وجاءه أحد المسلمين يوماً وهو في المسجد، وله عليه دَين، فقال له النبي ﷺ: «صلِّ ركعتين» فلما انتهى قضاه دينه وزاده[1].

وكان ﷺ يعلِّم الناس السماحة والتراحم في التعامل، بضرب الأمثلة أحياناً، فقد رُوي عنه أنه قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسراً – من مدينيه – قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا. فتجاوز الله عنه»[2].

---

[1] صحيح البخاري – الحديث رقم /٢٢١٩ – وجاء في (المواهب اللدنية) للقسطلاني: «روى الطبراني وابن حبان و البيهقي عن زيد بن سُعَنَة – وهو من أجلِّ أحبار يهود المدينة الذين أسلموا – أنه قال: لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته في وجه محمد حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حِلمه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حِلماً. فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حِلمه وجهله، فابتعت منه تمراً إلى أجل،فأعطيته الثمن. فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطل. فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ما أسمع؟! فو الله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء وتأمره بحسن التِّباعة – أي طلب الدين – اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعاً مكان ما رُعته – أي أفزعته – ففعل (وفي رواية أبي نعيم الأصفهاني في دلائل النبوة ص٩٣: قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ فقال: أمرني رسول الله أن أزيدك مكان ما رُعتُك. فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ فقلت: أنا زيد بن سُعْنة. قال: الحبر؟ قلت: الحبر. قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ما قلت، وتفعل ما فعلت؟) فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أَخبرهما: يسبق حِلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فقد اختبرتهما، فأشهدك أني قد رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً» ٣٣٣/٢ ط. المكتب الإسلامي. وعند أبي نعيم ص ٩٣: «وأشهدك أن شطر مالي – فإني أكثرها مالاً – صدقة على أمة محمد. فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم. قلت: أو على بعضهم. قال: فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فآمن به وصدقه وتابعه، وشهد مع رسول الله مشاهد كثيرة، ثم قُتِل في غزوة تبوك شهيداً». انظر في تخريج هذا الحديث (السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية) د. مهدي رزق الله أحمد – ص١٤٣ – حاشية ٢٢٢ – الطبعة الأولى عام ١٤١٢هـ–١٩٩٢م.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /١٩٣٦.

وكان يقول: «من أَنْظَرَ معسراً فله بكل يومٍ صدقة قبل أن يَحِلَّ الدَّين، فإذا حلَّ الدَّين فأنظره فله بكل يوم مِثلَيْه صدقة»[1].

وروى عبد الله بن أبي قتادة: «أن أبا قتادة طلب غريماً له – أي مديناً – فتوارى عنه، ثم وجده، فقال: إني معسر. فقال: آللهِ؟ قال: آللهِ.. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من سرَّه أن يُنجيه الله من كُرَبِ يوم القيامة، فلينفِّس عن معسر أو يضع عنه»[2].

وأردفت: وهذا عملاً بالآية القرآنية: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[3].

* * *

قال الأب ستيفانو: ما أجمل أن يكون التعامل بين الناس مبنياً على التسامح والرحمة، فالحياة عندنا في الغرب باتت لا تطاق، من شدة وطأة قوانين التعامل البشرية، ولا يدري أحد سبيل الخلاص والفكاك منها.

قلت: السبيل واضح، والأمر سهل على من عزم.

قال: كيف؟

قلت: بالرجوع إلى الله سبحانه، فإذا رجعنا إليه، تعلمنا نهجه سبحانه في التعامل مع عباده.

قال: وما هو نهجه سبحانه في التعامل مع عباده؟

قلت: نهجه في التعامل مع عباده الرحمة.

قال: ألا أوضحت؟

قلت: جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها؛ كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٨٦.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٩٢٣.

[3] البقرة /٢٨٠.

فعملها؛ كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة. ومن همّ بسيئة فلم يعملها؛ كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها؛ كتبها الله له سيئة واحدة»[1]. أفي هذا التعامل شيء غير التسامح والرحمة؟.

قال: بل هي الرحمة عينها!

قلت: والآية القرآنية تقول: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[2].

فقال الأب ستيفانو مبدياً إعجابه: يالمدرسة محمد! لو عرف الغرب بما فيها، لما جاوزها إلى غيرها.

قلت: أتدري ما هو النص الأصلي الذي عليه مدار التعامل في مدرسة محمد؟

قال: ما هو هذا النص؟

قلت: تقول الآية القرآنية: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾[3].

فقال بعد تفكُّر: لو عُمل بهذه الآية في أي مجتمع من المجتمعات، لانتفت منه الشرور، ولتنزَّلت عليه الرحمات.

قلت: ولأَغلقَت المحاكم أبوابها!.

قال: صدقت.

قلت: وفي مدرسة محمد ﷺ يتعلم الناس أن من أهم مظاهر أكل الأموال بالباطل التعامل بالربا.. ورحمةً بالناس من الوقوع في براثن المرابين الذين يمتصون دماء المحتاجين، فقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بتحريم الربا والنهي عنه، فقد رُوي عن الصحابي جابر بن عبد الله أنه قال: «لَعن رسول الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال: هم سواء»[4]. وكان هذا انطلاقاً من الآية القرآنية التي تقول:

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٦٠١٠.

[2] البقرة /٢٤٥.

[3] البقرة /١٨٨.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٩٩٥ متفق عليه.

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىَ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

والآية القرآنية التي تقول: ﴿يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[2].

والآية القرآنية التي تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا﴾[3].

قال الأب ستيفانو: ولماذا تَعدُّ تحريمَ الربا في مدرسة محمد من التسامح والرحمة بالبشر؟

قلت: لما تتصف به عملية الربا من قسوة البشر بعضهم على بعض، فالمَدِين ما كان لِيُقْدِم على الاستدانة لولا مسيس الحاجة، فيكون في موقف ضَعف، ويكون المرابي في موقف قوة، فيشتط بشروطه على المَدِين...

قال: أجل، ما الرحمة إلا الأخذ بيد الضعيف أمام القوي، لكن ما هو البديل للربا في مدرسة محمد؟

قلت: البديل هو القرض الحسن، الذي يحصل فيه الدائن على رأس ماله الذي أقرضه للمدين.

تقول الآية القرآنية: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ{٢٧٨} فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[4].

قال: وأين أجر الدائن هنا؟

---

[1] البقرة /٢٧٥.

[2] البقرة /٢٧٦.

[3] آل عمران /١٣٠.

[4] البقرة /٢٧٨-٢٧٩.

قلت: الدائن في مدرسة محمد ﷺ لا ينتظر أجر قرضه من المدين، بل هو يرجو أجره من الله سبحانه على ما قدمه من خير ورحمة في إنقاذ أخيه المدين من العسر الذي نزل به.

فقال بإعجاب: يا لله! إن هذا نوع من التسامح والتكافل الاجتماعي لم تعرفه الحضارة الغربية حتى الآن!.

* * *

قلت: هذا عن السماحة في الخُلُق، أما عن العدالة، فهي مقصودة ومطلوبة في مدرسة محمد على كل حال، وفي جميع صور التعامل... حتى من الزوج لأزواجه، وحتى من الأب لأبنائه، وحتى بين الرجل والمرأة، وبين الغني والفقير، وبين السُّوَقة والأمير... فالبشر كلهم أمام العدالة سواء في مدرسة محمد ﷺ، والأمثلة على هذا جمَّة متنوعة... حتى إن الغربيين شهدوا لهذا.

قال: مَن مِن الغربيين شهد لهذا؟

قلت: يقول المستشرق الأمريكي (سنكس): «وكان محمد أول من قرر المساواة والعدالة بين المسلمين»[1].

قال: وما هو مستند (سنكس) في هذا؟

قلت: إن مستنده في هذا نصوص كثيرة... لكن سأكتفي بأن أورد لك بعض الآيات القرآنية التي تعلِّم الناس العدالة:

تقول الآية القرآنية مخاطبة رسول الله ﷺ: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[2].

وتقول الآية القرآنية في وجوب عدل الزوج بين أزواجه: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾[3].

---

[1] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص٤٢.

[2] الشورى /١٥.

[3] النساء /٣.

وتقول الآية القرآنية في وجوب الحكم بين الناس بالعدل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾[1].

فبادر الأب ستيفانو قائلاً: وفي هذه الآية مظهر آخر من مظاهر الرحمة في التعامل.

قلت: ما هو؟

قال: أداء الأمانات إلى أصحابها.

قلت: صدقت.

وأردفت: وتقول الآية القرآنية في وجوب الحكم بالعدل ولو على أقرب الناس: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾[2].

فبادر الأب ستيفانو قائلاً: وفي هذه الآية أيضاً مظهر آخر من مظاهر الرحمة في التعامل.

قلت: ما هو؟

قال: ﴿وَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ لكن ما المقصود بهذا؟

قلت: المقصود هو تعليم البشر عدم الغش في التعامل، عن طريق التلاعب بالأوزان والمكاييل والمواصفات.

قال: حسبي، إن في هذا لكفاية... ما أجمل هذا!

قلت: لأختمَنَّ لك بواحدة: قد توسوس للإنسان نفسه، إن وُجِدَت عداوة بينه وبين آخر من البشر، أن لا يطبق العدالة في حقه، فجاءت الآية القرآنية تقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[3].

---

[1] النساء /٥٨.

[2] الأنعام /١٥٢.

[3] المائدة /٨.

قال الأب ستيفانو: عجباً لمدرسة محمد، حتى الأعداء نالوا قسطهم من العدل فيها![1].

* * *

**٢- رحمته في العبادات:**

وأردف قائلاً: ثم ماذا علّم محمد النّاسَ في مدرسته غير هذا من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناسَ في مدرسته الرحمةَ في العبادات.

قال: وهل في العبادات قسوة ورحمة؟!

قلت: أجل، فكثير من الناس يظنون أن التشديد على النفس، وإنهاك الجسم بالعبادة، والمبالغة في العزوف عن الدنيا، أمور يحبها الله سبحانه، بينما الحقيقة التي تَعلّمها الناس في مدرسة محمد، تقول غير هذا.

قال: وماذا تقول؟

قلت: تقول: إن النبي ﷺ كان أرحم بالمؤمنين منهم بأنفسهم.

قال: كيف؟

قلت: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا بها كأنّهم تقالّوها. فقالوا: وأين نحن من النبي، قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال الآخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال الثالث: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

---

[1] يقول الكاتب النصراني (شبلي شميل): «إن شريعة القرآن، بين الشرائع الدينية، هي الشريعة الوحيدة الاجتماعية العملية المستوفاة، التي ترمي إلى أغراض دنيوية حقيقية، يعني أنها لم تقتصر على الأصول الكلية الشائعة بين جميع الشرائع، بل اهتمت اهتماماً خاصاً بالأحكام الجزئية، فوضعت أحكام المعاملات، حتى فروض العبادات أيضاً، وهي من هذه الجهة شريعة علمية مادية» مجلة المقتطف عدد يناير سنة/١٩١٠م.

فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ: « يا عبد الله أَلَم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل. فقلت: بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل، صم وأفطر، وقُم ونَم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقاً. وإنَّ بحسبك أن تصوم كلَّ شهر ثلاثة أيام، فإنَّ لك بكل حسنة عشرَ أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله – قال عبد الله: فشدّدتُ فشُدِّد علي – قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة. قال: فصم صيام نبي الله داود عليه السلام ولا تزد عليه. قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: نصف الدهر – أي يصوم يوماً ويفطر يوماً –»، فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رُخصة النبي[2].

وروت زوجة النبي ﷺ السيدة عائشة قالت: «كان عندي امرأة من بني أسد، فدخل عليَّ رسول الله ﷺ فقال: من هذه؟ قلت: فلانة، لا تنام الليل، فذكرتُ من صلاتها... فقال: مَه، عليكم ما تطيقون من الأعمال، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا»[3].

وروي عنه ﷺ أنه خرج ليلة من جوف الليل، فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم – في الليلة التالية – فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثُر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلى فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله – أي لم يتسع لهم لكثرتهم – حتى خرج لصلاة الصبح – أي لم يخرج لصلاة الليل – فلما قضى

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٠٦٣ – صحيح مسلم الحديث رقم /٧٨٢.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /١٨٣٩ صحيح مسلم الحديث رقم /١٩٧٣.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /١٠٨٣.

الفجر أقبل على الناس، فتشهّد ثم قال: «أما بعد، فإنه لم يَخفَ عليَّ مكانكم، ولكنني خشيت أن تفرض عليكم - أي صلاة الليل - فتعجزوا عنها»[1].

وروي عنه أنه دخل المسجد ذات مرة، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟ قالوا: هذا لزينب[2] فإذا فترت تعلقت به. فقال: لا، حُلُّوه، ليُصَلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فَتَر فليقعد»[3].

*   *   *

وأردفتُ: حتى إطالة الإمام في الصلاة كان ينهى عنها رسول الله ﷺ رحمةً بالمأمومين، فعن أبي مسعود قال: «قال رجل: يا رسول الله، إني لأتأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان - أي الإمام - فيها. فغضب رسول الله ﷺ، ما رأيته غضب في موضع كان أشد غضباً منه يومئذ. ثم قال: أيها الناس، إن منكم منَفِّرين، فمن أَمَّ الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيفَ والكبيرَ وذا الحاجة »[4].

وروي عنه أنه قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وَجْد أمه من بكائه»[5].

وأردفت: بل هو لم يرضَ الإطالة المبالغ فيها حتى للمنفرد، رحمة به، وإقراراً للمبدأ الإسلامي العام في التيسير، رحمةً بالناس، فقد بلغه أن رجلاً في المسجد يطيل الصلاة، فأتاه فأخذ بمنكبه ثم قال: «إن الله رضي لهذه الأمة اليسر، وكره لهم العسر - قالها ثلاث مرات - وإن هذا أخذ بالعسر وترك اليسر»[6].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم/٨٧٢.

[2] في صحيح مسلم «لحمنة بنت جحش فإذا أعيت تعلقت به».

[3] صحيح البخاري الحديث رقم ١٠٨٢ - صحيح مسلم الحديث رقم /١١١٧.

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٦٦٣ وقال عنه الألباني في مشكاة المصابيح: متفق عليه.

[5] صحيح البخاري الحديث رقم/٦٦٨ - صحيح مسلم الحديث رقم /٧٢٣.

[6] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٦٣٥.

وبما أن الصلاة ركنٌ أساسٌ من أركان الإسلام، ويتكرر أداؤها كل يوم خمس مرات... فإنَّ ربطها بمكان محدد قد يكون فيه شيء من المشقة على الناس، لهذا فإن تعاليم مدرسة محمد ﷺ قد رحمت الناس حتى في هذا، فعلَّمت المسلمين أن بإمكانهم أداء الصلاة في أي مكان وُجِدوا فيه، طالما أنه طاهر من النجاسات. فقد روي عنه أنه قال: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجلٍ من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ»[1].

بل مِن فَرْط رحمته ﷺ بالناس، أنه رحمهم حتى في الأمور التعبدية السهلة جداً فقال: «لولا أن أشق على المؤمنين لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[2]. وهل في تنظيف الأسنان بالسواك مشقة بالغة؟!

قال الأب ستيفانو: هنيئاً لكم عبادتكم يا أتباع محمد. زدني من هذه الرحمة.

* * *

قلت: لم تقتصر رحمته ﷺ على الأمور المقررة في العبادة ذاتها، بل تعدت هذا إلى الرحمة حتى في تعليمه الناسَ العبادة.

قال: كيف؟

قلت: جاء عن الحكم السُّلَمي أنه قال: «بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله. فرماني القوم بأبصارهم! فقلت: واثُكل أُمَّياه! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يُصَمِّتونني سكتُّ، فلما صلى رسول الله، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلِّماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني، بل قال: إن هذه الصلاة لا يصح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[3].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٢٣.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٣٧٠.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٨٣٦.

وجاء عن أنس بن مالك قال: «بينما نحن جلوس في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد. فقال أصحاب رسول الله: مَه، مَه! فقال رسول الله ﷺ: لا تُزْرِموه – أي لا تقطعوا عليه بوله – دعوه. فتركوه حتى بال. ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القَذَر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن. قال فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنَّه على البول»[1].

* * *

وأردفت: هذا عن رحمته الناس في عبادة الصلاة، أما عن رحمته الناس في عبادة الصيام، فقد كان لا يرضى لهم الصيام في السفر، لما فيه من المشقة على المسافر – وبخاصة إلى ما قبل حوالي مئة عام أوائل القرن العشرين المسيحي– فقد روي عنه ﷺ أنه كان ذات مرة في سفر، فرأى زحاماً ورجلاً قد ظُلل عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا صائم. فقال: «ليس من البر الصوم في السفر»[2].

وخرج عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ كراع الغميم – وادٍ بين مكة والمدينة – فصام الناس، فقيل له: إن الناس قد شقَّ عليهم الصيام، وإنما ينظرون إليك فيما فعلت. فدعا بِقَدَح من ماء، بعد العصر، فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب. فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام، فقال: «أولئك العصاة، أولئك العصاة»[3].

وروي عنه أنه نهى أصحابه عن وصال الصيام رحمة بهم. فقالوا: إنك تواصل. قال: «إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني»[4].

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٢٩ وفي رواية صحيح الترغيب والترهيب للألباني رقم /٢٦٧٣: «وقال: إنما بعثتم ميسرين و لم تبعثوا معسرين».

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /١٨١٠ – صحيح مسلم الحديث رقم /١٨٧٩.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /١٨٧٨.

[4] صحيح البخاري: الحديث رقم /١٨٣٠ – صحيح مسلم: الحديث رقم /١٨٥٠.

وروى أبو هريرة قال: «بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله هلكتُ! قال: ما لك؟ قال: وقعتُ على امرأتي وأنا صائم! فقال رسول الله ﷺ: هل تجد رقبة تعتقها؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا. قال: فهل تجد إطعام ستين مسكيناً؟ قال: لا. قال فمكث النبي ﷺ، فبينما نحن على ذلك، أُتي النبي ﷺ بعَرَق فيها تمر، والعَرَق المِكتل - وعاء - قال: أين السائل؟ فقال: أنا. قال: خذها فتصدق به. فقال الرجل: أَعَلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد حَرَّتَي المدينة، والحَرّة البركان الخامد - أهل بيت أفقر من أهل بيتي!. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: أطعمه أهلك»[1].

وهنا ضحك الأب ستيفانو لكلام الأعرابي وقال: ما أيسر دينكم يا أتباع محمد!

* * *

قلت: هذا عن رحمته ﷺ الناسَ في عبادة الصيام، أما عن رحمته الناس في عبادة الحج، فقد كان لا يرضى لهم بأداء هذه العبادة إن لم تتوافر لهم السبل المادية والمعنوية كافة... انطلاقاً من الآية القرآنية التي نـزلت بفرض الحج: ﴿وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[2].

أما الذين يحبون المبالغة في تحمُّل مشاق هذه العبادة، فقد كان أرحم بهم منهم بأنفسهم كما هي عادته. فقد روي عنه أنه رأى شيخاً يهادى بين ابنيه، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: نذر أن يمشي إلى بيت الله - الكعبة - قال: «إن الله عن تعذيب هذا لنفسه لغني، وأمره أن يركب»[3].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /١٨٠٠.

[2] آل عمران /٩٧.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /١٧٣٢ - صحيح مسلم الحديث رقم /٣١٠٠ - وانظر مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٣٤٣١ ففيه زيادة (إلى بيت الله).

وروى عقبة بن عامر قال: «نذرتْ أختي أن تمشي إلى بيــت الله، وأمــرتني أن أستفتي النبي ﷺ، فاستفتيته. فقال: لتمشي ولتركب»[1].

* * *

وأردفتُ: لقد لخَّص ﷺ تعليمه الناسَ الرحمةَ في العبادة بقوله: «إن الدين يُسر، ولن يُشادّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقــاربوا، وأبشــروا، واســتعينوا بالغــدوة والروحة، وشيء من الدُّلجة»[2].

وهذا التيسير، وهذه الرحمة في العبادة، الأصل فيهما ما جاء في القرآن الكــريم، تقول الآية القرآنية: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[3].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾[4].

قال الأب ستيفانو: ما أجمل أن لا يحمِّل الإنسان نفسه فوق طاقته... ما أجمــل أن لا يبالغ الإنسان في العبادة فينسى نصيبه الحلالَ من الدنيا.. ما أجمل أن لا تكــون العبادة رهبانية.. بل تكون مشاركة في استمرار الحياة على الأرض... ما أجمل ســنَّة محمد في العبادة!.

* * *

### ٣- رحمته بكبار السن:

وأردف قائلاً: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته غير هذا من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بكبار السن من الرجال والنساء. والرحمةُ بهم تعني إكرامَهم وتوقيرَهم. وقد بلغ رسول الله ﷺ في هذا درجــةً

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم ١٧٣٣ – صحيح مسلم الحديث رقم /٣١٠٢.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٨.

[3] البقرة /١٨٥.

[4] الأعلى /٨.

وصلت إلى أن قَرَن إكرامهم بإجلال الله سبحانه، فقال: «إن من إجلال الله إكـــرام ذي الشيبة المسلم»[1] فأي رحمة بهم بعد هذا؟!

وكان من رحمته للكبار عامةً وتوقيرهم، أنه كان يؤكد على تقديمهم حـــتى في الكلام، فقد روي أن نفراً انطلقوا إليه، فبدأ أصغرهم بالكلام، فقـــال ﷺ: «يبـــدأ الأكبر»[2].

وفي الأمور الكبيرة كإمامة الصلاة – عندما تتساوى الكفاءات – ورد أنه أتاه رجلان يريدان السفر فقال لهما: «إذا أنتما خرجتما فأذِّنا، ثم أقيمـــا، ثم ليؤمكمـــا أكبركما»[3].

وفي الأمور الصغيرة، روي عنه أنه قال: «أراني في المنام أتسوّك بسواك، فجاءني رجلان، أحدهما أكبر من الآخر، فناولت السواك الأصغر منهما، فقيل لي كبِّر، فدفعته إلى الأكبر منهما»[4].

وروي أنه أُتي بشراب فشرب، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشـــياخ، فقـــال للغلام: «أتأذن لي أن أعطي هؤلاء؟ فقال الغلام: والله يا رسول الله لا أوثر بنصـــيبي منك أحداً. قال: فتلَّه رسول الله ﷺ في يده – أي دفعه إليه وأعطاه إياه –»[5].

---

[1] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٤٩٧٢ وقال عنه: حديث حسن – وكـــذلك قـــال في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٩٨ – وكذلك قال عنه العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء).

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٣١٥٨.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٩٤ – صحيح مسلم الحديث رقم /١٠٨١.

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٨ – صحيح مسلم الحديث رقم /٤٢١٦ – وقال عنـــه الألبـــاني في الصحيحة رقم /١٥٥٥: «قال ابن بطال: فيه تقديم ذي السن في السواك، ويلتحق به الطعام والشـــراب والمشي والكلام. وقال المهلب: هذا ما لم يترتب القوم في الجلوس، فإذا ترتبوا فالسنّة حينئذٍ تقديم الأيمن، وهو صحيح».

[5] صحيح البخاري الحديث رقم /٥١٨٩.

وقد قَرَن ﷺ رحمة الصغير إلى توقير الكبير، فكلتاهما رحمة لا يكون مسلماً من أغفلها، فقال: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقِّر كبيرنا»[1].

* * *

**٤- رحمته بالآباء والأمهات:**

قال الأب ستيفانو: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته غير هذا من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالآباء والأمهات، وسماها (برّ الوالدين). وحذَّرهم من القسوة عليهما، وسماها (عقوق الوالدين).

أما عن (برِّ الوالدين): فكان ﷺ لا يرضى للمسلم القيامَ حتى ببعض واجباته الدينية ما لم يكن ذلك برضا أبويه، فقد روي أن رجلاً هاجر إلى رسول الله ﷺ من اليمن لأجل الجهاد، فقال له: «هل لك أحد باليمن؟ قال: أبواي. قال: أذنا لك؟ قال: لا. قال: فارجع إليهما فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد، وإلا فبرّهما»[2].

وروي أنه جاءه رجل فقال: جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبويّ يبكيان. فقال له:«ارجع فأضحكهما كما أبكيتهما»[3].

بل هو كان يفضّل ويختار للمسلم أن يبرّ والديه على أن يجاهد في سبيل الله، حتى مع إذنهما له، فقد سأله رجل ذات مرة: أُجاهد؟ قال: «لك أبوان؟ قال: نعم. قال: ففيهما فجاهد»[4].

وجاءه مرة أحد المسلمين فقال: إني أريد الجهاد وجئت أستشيرك. فقال: «ألك والدة؟ قال: نعم. قال: فالزمها – وفي رواية فأكرمها – فإن الجنة تحت رجليها»[5].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢١٩٦.

[2] صحيح وضعيف سنن أبي داود للألباني الحديث رقم/ ٢٥٣٠ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح الترغيب والترهيب للألباني – الحديث رقم /٢٤٨١.

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥١٥.

[5] المستدرك على الصحيحين الحديث رقم /٧٢٤٨ –٢٥٠٢ وقال عنه: حديث صحيح.

*    *    *

وكان ﷺ إذا تحدث عن (برّ الوالدين) تارة يجمع بينهما، وتارة يخص كلاً منهما، فقد جاءه أعرابي ذات مرة فسأله: مَن أَبَرّ؟ قال: «أمَّك. قال: ثم مَن؟ قال: أمَّك. قال: ثم مَن؟ قال: ثم أباك»[1].

وكان رجل من الصحابة اسمه (حارثة بن النعمان) وكان أبرّ الناس بأمه، فقال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجنة، فسمعتُ فيها قراءة، فقلت: من هذا؟ فقالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البِر، كذلكم البِر»[2].

وروي عن جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي مالاً وولداً، وإن أبي يريد أن يجتاح مالي. فقال: «أنت ومالك لأبيك»[3].

وقال ﷺ: «الوالد أوسط أبواب الجنة»[4]، والوالد هنا هو الأب أو الأم أو كلاهما.

*    *    *

قال الأب ستيفانو: لعل هذه الرحمة بالوالدين، التي حرصت عليها مدرسة محمد تختص بالوالدين المسلمَين، أما الكافرَين فلا.

قلت: بل والكافرَين أيضاً، فقد جاء عن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: قدمتْ عليَّ أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدهم النبي ﷺ – كان أبو بكر قد طلق قتيلة أم أسماء في الجاهلية – فاستفتيتُ رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصِل أمي؟ قال: «نعم، صِلي أمك»[5].

---

[1] مختصر إرواء الغليل للألباني وقال عنه: حديث صحيح.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٩١٣.

[3] (صحيح وضعيف سنن ابن ماجه) للألباني الحديث رقم ٢٢٩١ وقال عنه: صحيح.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٩١٤.

[5] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٢١ – صحيح مسلم الحديث /١٦٧١ واللفظ له.

وأردفت: و لم يكتفِ ﷺ بالتأكيد على بر الوالدين، بل تعداهما إلى إخوانهمـا فقال: «من أَحب أن يصل أباه في قبره، فلْيصلْ إخوان أبيه بعده»[1].

* * *

قال الأب ستيفانو: هذا عن (بر الوالدين) فماذا عن عقوقهما؟

قلت: أما عن (عقوق الوالدين)،فقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسـته أن هذا من أكبر الكبائر في الإسلام! فقد روى عنه أحد أصحابه أنه قال: «ألا أنبـئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يا رسول الله. قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين»[2].

فبادر الأب ستيفانو قائلاً بتعجب: عقوقُ الوالدين قرينُ الإشراك بالله؟! هـذه هي الرحمة، هذه هي الرحمة!.

قلت: وقال في حديثٍ آخر: «أبشروا، أبشروا: إنه من صلى الصلوات الخمس، واجتنب الكبائر، دخل من أي أبواب الجنة شاء: عقوقَ الوالدين، والشركَ بالله، وقتْلَ النفس، وقذفَ المحصنات، وأكلَ مال اليتيم، والفرارَ من الزحف، وأكلَ الربا»[3].

وقال في حديث آخر: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العـاقُّ لوالديه،ومُـدمنُ الخمر، والمنَّانُ عطاءَه. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقُّ لوالديه، والدَّيُّوث، والرَّجُلَة»[4].

وأردفت: بل هو جعل من الكبائر أن يتسبب الابن في وصول الأذى إلى والديه، فقال: «من الكبائر شتمُ الرجل والديه. قالوا: يارسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال:نعم، يسبُّ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه، فيسبُّ أمه»[5].

* * *

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٤٣٢.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥١٩ وتمامه: «وكان متَّكِئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور، ألا وقول الزور وشهادة الزور، فما زال يقولها حتى قلت لا يسكت».

[3] السلسلة الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٣٤٥١.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني – الحديث رقم /٢٥١١ وقال عنه: حسن صحيح.

[5] المرجع السابق الحديث رقم /٢٥١٤ وقال عنه: صحيح.

وأَضَفْتُ: ولأجل هذا التأكيد على الرحمة بالوالدين وبرّهما، فقد كانت عقوبة من يعق والديه معجَّلةً له في الدنيا قبل الآخرة، حيث قال ﷺ: «اثنان يعجِّلهما الله في الدنيا: البغي، وعقوق الوالدين»[1].

فقال الأب ستيفانو بعد تفكُّر: يخيَّل إلي بعد كل هذا أن رضا الله وسخطه على المرء، معلَّق برضا الوالدين وسخطهما.

قلت: أصبت، فقد قال رسول الله ﷺ: «رضا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخطهما»[2].

قال: أوَلهذه الأحاديث النبوية الصحيحة في برِّ الوالدين والرحمة بهما أصل في القرآن؟

قلت: أجل تقول الآية القرآنية: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً{٢٣} وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[3].

وتقول الآية القرآنية: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[4].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[5].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾[6].

---

[1] صحيح و ضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم /١٣٧ وقال عنه: صحيح.

[2] المرجع السابق الحديث رقم /٥٨٢٠ وقال عنه: صحيح.

[3] الإسراء /٢٣-٢٤.

[4] الأنعام /١٥١.

[5] لقمان /١٤.

[6] العنكبوت /٨.

فقال الأب ستيفانو بعد تفكُّر: كم بين نظرة مدرسة محمد إلى الأبوين، وبين نظرة المدرسة الغربية المعاصرة إليهما من بون شاسع!

قلت: كيف هذا؟

قال: إن المدرسة الغربية المعاصرة، بعد أن تخلت عن نظام الأسرة بصورته الصحيحة، جعلت من الأبوين عبئاً على الأبناء، يحاولون التخلص والتملص منه ما استطاعوا، وبخاصة عندما يتقدم العمر بالأبوين.

قلت: لكنَّ الغربيين استحدثوا دُور العجزة لحل هذه المشكلة، وصرنا نقلدهم أحياناً.

قال: وهل يحرص الموظف على حسن سير العمل في المصنع، حرصَ صاحبه عليه؟

قلت: لا.

قال: أضف إلى هذا أن الشيخ والشيخة لا يشعران بشيخوختهما شعوراً حاداً طالما أنهما يعيشان في منـزلهما بين ذويهما، فإذا نُقلا إلى (مأوى العجزة) تضاعفت آلامهما النفسية، واستشعرا العقوق الحقيقي من أبنائهما.

* * *

## ٥- رحمته بالأطفال:

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته غير هذا من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالأطفال والصبيان والعيال. فقد روى الصحابي أنس بن مالك، وكان خادماً ملازماً لرسول الله ﷺ، قال: «ما رأيت أحداً أرحم بالعيال[١] من رسول الله ﷺ، كان إبراهيم - ابنه -

[١] كل من كان دون الخامسة عشرة من عمره فهو من العيال - انظر الحديث رقم /٣٤٧٣ في صحيح مسلم.

مسترضَعاً في عوالي المدينة – حي من أحيائها – فكان ينطلق ونحن معه، فيدخل البيت وإنه لَيُدَّخَن، وكان ظئره قيناً[1]، فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع»[2].

وكان ﷺ يستدل على وجود الرحمة في قلوب الناس، برحمتهم أطفالهم، فقد جاء عن زوجته السيدة عائشة قالت: «قدِمَ ناسٌ من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبِّلون صبيانكم؟! فقالوا: نعم. فقالوا: لكنا والله لا نقبِّل. فقال رسول الله ﷺ: وأملكُ إن كان الله نزع منكم الرحمة؟!»[3].

وجاء عن أبي هريرة: «أن الأقرع بن حابس أبصر النبي يقبّل الحسن. فقال: إنَّ لي عشرة من الولد، ما قبَّلْتُ واحداً منهم. فقال رسول الله ﷺ: إنه من لا يَرحم لا يُرحم»[4].

* * *

وكان ﷺ يداعب الأطفال بما يناسب أعمارهم، فقد رُوي عنه أنه «كان يدلع لسانه للحسن بن علي، فيرى الصبي حمرة لسانه فيبهش إليه – أي يسرع إليه –»[5].

ورُوي عنه أنه كان يلاعب زينب بنت أم سلمة – أي بنت زوجته من زوجها السابق – وهو يقول: «يا زوينب، يا زوينب، مراراً»[6].

وروى عنه صاحبه وخادمه أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ يدخل علينا – أي على أهل أنس – ولي أخ صغير يكنى أبا عمير، وكان له نُغر – طائر

---

[1] الظئر هنا: زوج المرضعة، والقين: الحداد – وتدخين البيت بسبب عمل الحداد بالكير.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٢٧٩–٤٢٨٠ /.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٢٨١.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٢٨٢.

[5] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٧٠.

[6] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢١٤١.

صغير – يلعب به، فمات، فدخل عليه النبي ﷺ ذات مرة فرآه حزيناً، فقال: ما شأنه؟ قالوا: مات نُغره. فقال له: يا أبا عمير ما فعل النغير؟»[١].

* * *

وكان ﷺ لا يحرِم الأطفال من رحمته وعطفه حتى في أثناء صلاته، فقد رُوي عنه أنه «كان يصلي، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوهما، أشار إليهم أن دعوهما، فلما قضى الصلاة وضعهما في حجره وقال: من أحبني فليحب هذين »[٢].

ورُوي عنه أنه «كان يصلي وهو حامل أمامةَ بنت زينب – بنت رسول الله ﷺ – فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها»[٣].

* * *

وكان ﷺ يجلس إلى الأطفال ليلعبوا أمامه، ويشاركهم أحياناً، فقد جاء عنه أنه «كان يَصفُّ عبد الله وعبيد الله وكَثيراً، من بني عمه العباس، ويقول: من سبق إلي فله كذا وكذا. قال: فيستبقون إليه، فيقعون على ظهره وصدره، فيلتزمهم ويقبلهم»[٤].

أما إذا مرّ بهم وهم في لعبهم، فلم يكن يتجاهلهم، حدَّث عبد الله بن جعفر قال: «لقد رأيتُني وقثم وعبيد الله ابنَي العباس، ونحن صبيان نلعب، إذ مر بنا رسول الله ﷺ فقال: ارفعوا هذا إلي. فحملني أمامه – على الدابة – وقال لقثم: ارفعوا هذا إلي. فحمله وراءه.. ثم مسح على رأسي ثلاثاً، كلما مسح قال: اللهم اخلف جعفراً في ولده»[٥].

---

[١] (صحيح وضعيف سنن أبي داود) للألباني الحديث رقم /٤٩٦٩ – وانظر صحيح البخاري الحديث رقم/٥٧٣٥.

[٢] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣١٢.

[٣] صحيح البخاري الحديث رقم /٤٨٦ – صحيح مسلم الحديث رقم /٨٤٤.

[٤] مسند أحمد الحديث رقم /١٧٣٩ وأورده صاحب (مجمع الزوائد) وقال: رواه أحمد وإسناده حسن.

[٥] أورده صاحب (مجمع الزوائد) ٢٨٥/٩ وقال: رواه أحمد ورجا له ثقات.

* * *

وكان ﷺ من شدة رحمته بالأطفال، كأنما يشتاقهم إذا ذهب في سفر، فإذا قدم من سفره، تلقاه الناس بالأطفال لما يعرفونه من شدة رحمته بهم، فقد حدّث عبد الله بن جعفر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تُلُقِّي بصبيان أهل بيته. قال: وأنه قدم من سفر، فسُبق بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابنَي فاطمة فأردفه خلفه. قال: فأُدخلنا المدينة ثلاثة على دابة»[1].

وحدث ابن عباس قال: «أتى رسول الله ﷺ مكة وقد حمل قثم بن العباس بين يديه، والفضل – ابن العباس – خلفه»[2].

وكان الناس يعرفون هذا الخلق النبيل من رحمته ﷺ، فكانوا يأتونه بأطفالهم ليدعو لهم بالبركة. فقد رُوي عن زوجه السيدة عائشة: «أن رسول الله ﷺ كان يُؤتى بالصبيان فيبرّك عليهم ويحنّكهم»[3].

* * *

وأردفت: هذه الرحمة الشديدة بالأطفال، لم يكن ﷺ يستأثر بها لنفسه، بل كان كثيراً ما يرغّب الناس بها، ويحثّهم على الإحسان إلى الأطفال والقيام على شؤونهم. فقد رُوي عنه أنه قال: «مَن وُلد له ثلاثة أولاد في الإسلام، فماتوا قبل أن يبلغوا الحِنث، أدخله الله عز وجل الجنة برحمته إياهم»[4].

وكان يقول: «مَن عالَ جاريتين حتى تُدركا، دخلتُ الجنة أنا وهو كهاتين، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»[5].

---

[1] صحيح مسلم – الحديث رقم /٤٤٥٥.

[2] صحيح البخاري – الحديث رقم /٥٥٠٩.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم ٤٠٠٠ — والتحنيك المقصود هنا: مضغ التمر ودلْك فم الصغير به عقب الولادة.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٢٦٨١.

[5] المرجع السابق – الحديث رقم /١١٢٠.

* * *

وكان ﷺ يوصي الناس بالنفقة الدائمة على الأهل والعيال، ويرغِّب فيها ويقول: «أفضل دينار ينفقه الرجل، دينار ينفقه على عياله» قال أبو قلابة راوي الحديث: «وأي رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار، يُعفُّهم، أو ينفعهم الله به ويغنيهم»[1].

ويقول: «دينارٌ أنفقتَه في سبيل الله، ودينارٌ أنفقتَه في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين ودينارٌ أنفقتَه على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقتَه على أهلك»[2].

* * *

وأردفت: ومِن سُبُل الرحمة بالأولاد، العدل بينهم في العطية، ولهذا قال ﷺ: «اعدلوا بين أولادكم في العطية»[3].

وحدَّث النعمان بن بشير قال: «أعطاني أبي عطيةً، فقالت عَمْرة بنت رواحة – أم النعمان وزوجة بشير – لا أرضى حتى تُشهد رسول الله. فأتى رسول الله ﷺ فقال: إني أعطيت ابني من عَمرة بنت رواحة عطيةً، فأمرتْني أن أُشهدك يا رسول الله. قال: أعطيتَ سائر ولدك مثل هذا؟ قال: لا. قال: فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم. قال: فرجع فردّ العطية»[4].

* * *

قال الأب ستيفانو: قرأتُ مرةً عبارةً للمستشرق الأمريكي (سنكس) يقول فيها: «وقام محمد بحماية الأطفال وتحريم قتلهم خوفاً من إعالتهم»[5] فما هو مستند (سنكس) في هذه العبارة، من النصوص الأصلية؟

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /١٦٦٠.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /١٦٦١.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٩٦.

[4] صحيح البخاري /٢٣٩٨.

[5] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص ٤٢.

قلت: مستنده موجود في آيات القرآن الكريم:

تقول الآية القرآنية: ﴿يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ﴾[1].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾[2].

وتقول الآية القرآنية: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم﴾[3].

وتقول الآية القرآنية: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[4].

فتفكر الأب ستيفانو قليلاً ثم قال: إن ما علَّمه محمد في مدرسته عن الرحمة بالأطفال منذ حوالي /١٤٠٠/ عام، هو ما صارت تتبناه وتدعيه لنفسها اليوم الحضارة الغربية المعاصرة... مع فارق جوهري، هو أن هذه غالباً ما حرَمت الأطفال من الحياة الأسرية الصحيحة، فجعلتهم ينشؤون ويتربّون على الأنانية... بينما استطاعت مدرسة محمد أن توفر لهم تلك البيئة الإنسانية التي توفرها الأسرة لأفرادها صغاراً وكباراً.

* * *

## ٦- رحمته بالأقارب:

وأردف قائلاً: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته غير هذا من أبواب الرحمة؟.

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناسَ في مدرسته الرحمةَ بالأقارب، وسمّى القرابة (الرَّحِم) وسمّى الرحمة بالأقارب (صِلة الرحم) ومهما حدثتُك عن صلة الرحم كما علَّمها رسول الله ﷺ في مدرسته، فلن أستطيع أن أوفيها حقها، لهذا سوف أحدثك بما يحضرني. وأول ما يحضرني حديثه عن خَلْق الرحم (القرابة):

قال ﷺ: «إن الله خلق الخَلْق، حتى إذا فرغ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة! قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب. قال: فهوَ لكِ»[1].

---

[1] النساء /١١.

[2] الأنعام /١٥١.

[3] الإسراء /٣١.

[4] الأنعام /١٤٠.

ثم كأن الله سبحانه بعدما خلق الرَّحم وسمَّاها، انتصر لها وجعلها في حمايته، فقد قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرّحم، وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلْته، ومن قطعها بَتتُّه»[2].

وقال ﷺ: «الرّحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله»[3].

* * *

وأردفتُ: ولهذا كانت الرحمة بالأقارب هي الأحب إلى الله سبحانه – بعد الإيمان به – من بين جميع الأعمال المقرِّبة إليه. وكانت القسوة على الأقارب، هي الأبغض إلى الله سبحانه – بعد الإشراك به — من بين جميع الأعمال المبعِدة عنه. فقد حدّث رجل من قبيلة خثعم قال: «أتيت النبي ﷺ وهو في نفر من أصحابه، فقلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: نعم.

قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الإيمان بالله.

قلت: يا رسول الله،ثم مَه؟ قال: ثم صلة الرحم.

قلت: يا رسول الله،ثم مَه؟ قال: ثم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أبغض إلى الله؟ قال: الإشراك بالله.

قلت: يا رسول الله، ثم مَه؟ قال: ثم قطيعة الرحم.

قلت: يا رسول الله، ثم مَه؟ قال: ثم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف»[4].

* * *

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٢٨- صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٣٤.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٥٢٠.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٣٥.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني – الحديث رقم /٢٥٢٢ وقال عنه: صحيح.

وأردفت: ثم إنه ﷺ كان يعلِّم الناس أن ثواب الآخرة ودخول الجنة منوط بصلة الرحم، أي (برحمة الأقارب)، فقد قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم»[1]، أي من يقسو على أقاربه.

وروي أنه قال له رجل: أخبرني بعمل يدخلني الجنة. قال: «تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم»[2]. فمن أخلَّ بواحد من هذه الأربعة لم يضمن دخول الجنة.

ثم إنه ﷺ كان يعلِّم الناس أن عقوبة قاطع الرحم تُعَجَّل له في الدنيا قبل الآخرة، فقد قال: «ما من ذنْبٍ أجدر أن يُعجِّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة – من العقوبة – من البغي، وقطيعة الرحم»[3].

ويعلِّمهم، أنه كما تُعَجَّل العقوبة في الدنيا لمن يقسو على أقاربه، فكذلك يُعجَّل الثواب في الدنيا لمن يرحم أقاربه. قال: « ليس شيء أُطيعَ اللهُ فيه، أعجل ثواباً من صلة الرّحم، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم »[4].

وكان ﷺ يعطي الناس مثلاً من الثواب المعجّل في الدنيا لمن يرحم الأقارب، فيقول: «صلة الرحم، وحسن الخُلُق، وحُسن الجوار، يزِدنَ في الأعمار ويَعمُرنَ الديار»[5].

* * *

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٣٧.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /١٣٠٩.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٩١٨.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٩٧٨.

[5] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٥١٩.

وأردفتُ: ثم إنه ﷺ كان يعلِّم الناس أن من أراد أن يفوز بضِعف ثواب ما يتصدق به، أن يقصد بصدقته الأقارب أولاً من ذوي الحاجة. فقد قال: «الصدقة على المسكين صدقة، وهي على ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة»[1].

وحدّثتْ زينب، زوجةُ الصحابي عبد الله بن مسعود – وكان فقيراً – قالت: قال رسول الله ﷺ: «تصدَّقنَ يا معشر النساء ولو من حُلِيِّكُن – في صحيح البخاري: وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها – قالت: فرجعتُ إلى عبد الله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد – أي فقير – وإن رسول الله قد أمرنا بالصدقة، فأته فاسأله، فإن كان ذلك يُجزىء عني وإلا صرفتها إلى غيركم. قالت: فقال لي عبد الله: بل ائتيه أنتِ. قالت: فانطلقتُ، فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها.قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيت عليه المهابة. قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائتِ رسول الله فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجريهما؟ ولا تخبره من نحن.

قالت: فدخل بلال على رسول الله ﷺ،فسأله. فقال له رسول الله ﷺ: من هما؟ فقال: امرأة من الأنصار وزينب. فقال رسول الله: أي الزيانب؟ قال: امرأة عبد الله. فقال رسول الله ﷺ: لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصدقة»[2].

وروى أنس بن مالك قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل. وكان أحب أمواله إليه (بيرحاء) – هي قطعة أرض زراعية – وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب. قال أنس: فلما أُنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[3] قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى

---

[1] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /١٩٣٩ وقال عنه: صحيح.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /١٦٦٧ – صحيح البخاري الحديث رقم /١٣٧٣.

[3] آل عمران /٩٢.

تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحبّ أموالي إلي (بيرحاء) وإنها صدقة لله أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله ﷺ: بَخٍ،ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعلُ يا رسول الله. فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه»[1].

وهنا بادر الأب ستيفانو قائلاً بإعجاب: كم هو جميل تعليم محمد! وكم هو جميلٌ فعلُ أبي طلحة!.

* * *

قلت: لم يكن رسول الله ﷺ يكتفي بتعليم الناس فضل الصدقة على الأقارب، بل كان يعلِّمهم أن الإنفاق حتى على الأهل الأَدْنَين الذين تجب على المسلم إعالتُهم، له فضلُ وثوابُ الصدقة أيضاً. فقد قال ﷺ: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها – أي يقصد بها الثواب من الله – كانت له صدقة»[2].

وسألتْه مرةً زوجته السيدة أم سلمة – وكانت لها أبناء من زوجها السابق المتوفى – فقالت: يا رسول الله، هل لي أجر من بني أبي سلمة، أُنفق عليهم ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بنيَّ؟ فقال: «نعم، لك أجر ما أنفقتِ عليهم»[3].

* * *

وأردفتُ: أمَّا إن حلَّ الجفاء مكان المودة بين الأقارب، وحلّت القطيعة مكان التواصل، فهنا امتحان رحمة المسلم بأقربائه، وهنا يظهر فضل واصل الرحم على قاطعها، وهنا يُخبأ الجزاء الأوفى لواصل الرحم. قال ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»[4].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /١٣٦٨ – صحيح مسلم الحديث رقم /١٦٦٤.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /١٦٦٩.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /١٦٦٨ صحيح البخاري الحديث رقم /١٣٧٤.

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٣٢.

ويتضح معنى هذا الحديث جلياً بالحديث التالي: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني – أي أرحمهم ويقسون علي – وأُحسن إليهم ويسيؤون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي. فقال: لئن كنتَ كما قلتَ، فكأنما تُسفُّهم المَل، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك»[1].

وهكذا علَّم رسول الله ﷺ الناس أن الله سبحانه دائماً مع الإنسان الرحيم بأقاربه المجافين له، وأن من الخير لهذا الإنسان إن وجد أقرباءه هؤلاء بحاجة إلى الصدقة، أن ينفق صدقته عليهم، رحمة بهم وتأليفاً لهم. قال ﷺ: «أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح – أي القريب المجافي –»[2].

* * *

وأردفت: ولأجل هذه المرتبة الفضلى للرحمة بالأقارب، كان ﷺ يحث المسلمين جميعاً عليها ويقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلْيصلْ رحمه»[3].

ويقول: «من أحبّ – وفي رواية من سرّه – أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره، فلْيصلْ رحمه»[4].

ويقول: «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»[5].

* * *

قال الأب ستيفانو: وهل لهذه الأحاديث النبوية ما تتوافق معه من الآيات القرآنية؟

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٤٠.

[2] إرواء الغليل للألباني الحديث رقم /٨٩٢ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٦٧٣ وتمامه: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٢٧ صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٣٨.

[5] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٧٦.

قلت: أجل، تقول الآية القرآنية التي تحذِّر من قطع الأرحام والقسوة على الأقارب: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ﴾[1]. وتقول الآية القرآنية التي تحذر من قطع الأرحام والقسوة على الأقارب وتقرنها بالفساد في الأرض: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ{٢٢} أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[2]، وتقول الآية القرآنية: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى﴾[3].

* * *

### ٧- رحمته بالأصحاب:

قال الأب ستيفانو: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالأصحاب، فقال: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه»[4].

وكان ﷺ دائماً يعطي من نفسه المثال الأمثل ليبين للناس فضل الرحمة بالأصحاب في حفظ الصحبة، لأن الرحمة إذا ارتحلت من بين الأصحاب، تبعتها المودَّة، وإذا ارتحلت المودَّة من بين الأصحاب، حلّ مكانها الجفاء، وإذا حلّ الجفاء بين الأصحاب، ماتت الصحبة، وتفكك المجتمع، وصار يكيد بعضه بعضاً.

ولهذا كان ﷺ يغتنم المناسبات ليُظهر لأصحابه رحمته بهم. وكان من أقرب أصحابه إليه جماعة الأنصار، الذين هاجر إليهم من مكة إلى المدينة، وتعاهد معهم على السراء والضراء، وأكنَّ لهم كل الحب والمودَّة، وعامَلهم بكل رحمة، حتى قال: «ألا إن

---

[1] النساء /١.

[2] محمد /٢٢-٢٣.

[3] النساء /٣٦.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٠٣.

الناس دثاري والأنصار شعاري[1]، لو سلك الناس وادياً، وسلكتْ الأنصار شِعباً لاتّبعتُ شِعب الأنصار [2]ولولا الهجرة لكنت رجلاً من الأنصار»[3].

وكان يوصي بهم أمراء المسلمين ويقول: « من وَلِيَ أمْرَ الأنصار فليُحسن إلى محسنهم وليتجاوز عن مُسيئهم، ومن أفزعهم فقد أفزع هذا الذي بين هاتين، وأشار إلى نفسه»[4]. بل كان يوصي بهم المسلمين جميعاً ويقول: « استوصوا بالأنصار خيراً، اقبلوا من مُحسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم »[5].

وكان يدعو المسلمين إلى محبتهم فيقول: «لا يبغض الأنصارَ رجلٌ يؤمن بالله واليوم الآخر»[6].

* * *

وأردفت: وكان من أقرب أصحابه إليه جماعة المهاجرين، وهم المسلمون الأوائل الذين تركوا أرضهم وديارهم وأموالهم وخرجوا مهاجرين من مكة فراراً بدينهم الذي اعتنقوه وتمسكوا به عن صدق وإيمان، بعدما لاقوا من إيذاء وعذاب المشركين ما لاقوا.. فكانت أوضاعهم الشغلَ الشاغلَ للنبي ﷺ، حتى تمكن من توطينهم في المدينة بعدما آخى بينهم وبين الأنصار، وصار الفريقان بعد هذه المؤاخاة فريقاً واحداً يؤْثِر بعضهم بعضاً في كل خير.

وقد ظهرت الرحمة المتبادلة بين هاتين الجماعتين وبين النبي ﷺ، في مواطن كثيرة.. لعل من أجملها وقعاً في النفس، ما رواه الصحابي الأنصاري أنس بن مالك عندما تحدث عن غزوة الخندق، التي هاجم فيها المشركون المدينة، فتحصن المسلمون

---

[1] الدثار: الثوب الخارجي – الشعار: الثوب الداخلي الذي يلامس شعر البدن.

[2] أي لو افترق الناس عن الأنصار لتركت الناس وكنتُ مع الأنصار.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٩١٧.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٩١٧.

[5] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٥٠٩.

[6] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٢٣٤.

داخلها ، وحفروا حولها خندقاً منع دخول المشركين إليها. وقد شارك النبي ﷺ أصحابه في حفر ذلك الخندق. قال أنس: «إن أصحاب النبي كانوا يقولون وهم يحفرون الخندق:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

والنبي ﷺ يقول: «اللهم إن الخير خير الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة»، وأُتي رسول الله ﷺ - يومذاك - بخبز شعير عليه إهالة سنخة، فأكل الجميع منها»[1].

هكذا كان ﷺ يعلِّم الناس التراحم بين الأصحاب.. يشاركهم الشدة.. فيكون كأحدهم، يجهد كما يجهدون، ويأكل مما يأكلون.

* * *

وأردفت: وكان ﷺ يتوجه إلى الناس دائماً يأمرهم برحمة أصحابه ويقول: «أحسنوا إلى أصحابي»[2].

ويقول: «احفظوني في أصحابي»[3].

ويقول: «إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا»[4]. أي أمسكوا عن الكلام فيهم.

وبلغه أن رجلاً شتم أحد أصحابه، فقال: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم، ولا نصيفه»[5].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١١٠٢.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٤٣٠.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١١١٦.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٤.

[5] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦١٠ - صحيح البخاري الحديث رقم /٣٣٩٧ – أحد: جبل قرب المدينة، المُدّ: ملء الكفين، النَّصِيف: نصف المد.

أما صاحبه الأكبر أبو بكر الصديق، فذاك الذي لا يصل رجل إلى منزلته عنده، حتى أنه قال: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي، لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكنْ أُخوّة الإسلام ومودَّته – وفي رواية: ولكن أخي وصاحبي–»[1].

* * *

وأردفت: وهذا كله مرجعه إلى الآية القرآنية التي تقول: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً﴾[2].

قال الأب ستيفانو: ما أحوجنا اليوم إلى رعاية الصحبة كما رعاها محمد.

قلت: لماذا؟

قال: لأن الحياة المادية التي نحياها اليوم، قضت على ما كان يسمى الصحبة والرحمة بالأصحاب... وبات الإنسان لا يرضى لنفسه صاحباً سوى المال... ولأجله صار يضحي بالرفاق والأصحاب.. فأيّ قسوة هذه؟! إذا قابلناها بما علّمه محمد!.

* * *

### ٨– رحمته بالجار:

وأردف قائلاً: ثم ماذا علَّم محمد الناس في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناسَ في مدرسته الرحمةَ بالجار فقال: «خير الجيران خيرهم لجاره»[3].

وكان يُرغِّب ذلك إلى الناس ويقول: «من كان يؤمن بالله وباليوم الآخر فلا يُؤذِ جارَه»[4].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٣٨١–٣٣٨٣.

[2] الفتح ٢٩.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٠٣.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم /٦٨.

وكان يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جاره»[1].

وكان يقول: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره»[2].

* * *

وأردفت: ولعل من باب الإحسان إلى الجار وإكرامه، الإهداء له، مهما كانت الهديّة هيّنةً متواضعة، قال ﷺ: «يا نساء المسلمات، لا تحقِرَنّ جارةٌ لجارتها ولو فِرسِن شاة»[3].

وكان ﷺ يطلب إلى المسلم أن يجعل جاره مثل نفسه، فيقول: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد حتى يحبَّ لجاره ما يحبُّ لنفسه»[4].

بل إن الإنسان لا يمكن أن يكون مؤمناً بالله إذا لم يكفف أذاه عن جاره. قال ﷺ: «والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جارُه بوائقَه – أي شروره –»[5].

بل إن إيذاء الجار يمنع من دخول الجنة، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقَه»[6].

بل قد يكون المسلم معروفاً باستغراقه في عبادة الله، فلا يمنعه من دخول الجنة ويدفعه إلى النار سوى إيذائه جاره، فقد قيل للنبي ﷺ: «إن فلانة تقوم الليل، وتصوم النهار، وتتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها. فقال رسول الله ﷺ: لا خير فيها، هي في النار»[7].

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /٦٧.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٦٩.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٧٨ – والفرسن: طرف خف البعير، ويستعار للشاة.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم/٦٥.

[5] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم ٢٥٥٠-٢٥٥١ وقال عنه: صحيح.

[6] صحيح مسلم الحديث رقم/٦٦..

[7] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/١٩٠.

وقد يكون المسلم لا يؤدي من العبادة سوى الفرائض، لكنه لا يؤذي جيرانه – أي لا يقسو على جيرانه بل يرحمهم – فيدخل الجنة. قيل للنبي ﷺ: «إن فلانة تصلي المكتوبة، وتصوم رمضان، وتتصدق بأثوار من أقط – أي صدقة هيِّنة – ولا تؤذي جيرانها. قال: هي في الجنة»[1].

*　　*　　*

وأردفتُ: وما كل هذا إلا بسبب السعادة التي يُنـزلها الجار الصالح بجاره، وبسبب الشقاء الذي يُنـزله الجار السيّء بجاره. قال ﷺ: «أربعٌ من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء. وأربعٌ من الشقاء: الجار السوء، والمرأة السوء، والمركب السوء، والمسكن الضيّق»[2].

ولهذا كان ﷺ يتعوذ من جار السوء، وبخاصة إذا كان جاراً في دار إقامة، أما الجار الذي يفارق عن قريب فهو أخف وطأة. وكان يقول: «تعوّذوا بالله من جار السوء في دار المقام، فإن الجار البادي – أي من أهل البادية – يتحول عنك»[3].
وذلك لأن دار المقام تكون ثابتة مبنية، أما دار البداوة فتكون خيمة تُنقل من مكان إلى آخر.

*　　*　　*

وأردفتُ: ولأجل هذا كله علّم رسول الله ﷺ الناسَ أن عقوبة إيذاء الجار – عقوبة القسوة عليه وعدم رحمته – تفوق عشر مرات عقوبةَ إيذاء غيره، فقال: «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره، ولأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره»[4].

*　　*　　*

[1] صحيح البخاري الحديث رقم/٧٣٠٥.
[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٨٢.
[3] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم ٥٢٧٨ وقال عنه: صحيح.
[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٦٥.

وأردفت: إن جميع ما أوصى به رسول الله ﷺ بحق الجار، إنما مردّه إلى ما أوصاه به الله سبحانه في هذا، فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننتُ أنه سيورِّثه»[1].

وكان من صدى هذا التعليم النبوي للرحمة بالجار في مدرسة رسول الله ﷺ، أن التزم المسلمون بالإحسان إلى جيرانهم، مهما كان لونهم أو عرقهم أو دينهم. فقد رُوي عن الصحابي عبد الله بن عمر، أنه ذُبحت له شاة في أهله، فلما جاء، قال: أهديتم لجارنا اليهودي، أهديتم لجارنا اليهودي - كررها - سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه»[2].

* * *

**٩-رحمته بالأرقاء والخدم:**

قال الأب ستيفانو: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالأرقاء والخدم. فقد بَسَط أولاً القضية واقعاً موجوداً بين الناس، فيه حقوق وواجبات... ونبَّه إلى ضرورة العدل فيها فقال: «إن إخوانَكم خولُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، وليُلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[3].

وقال: «للمملوك طعامه وشرابه وكسوته، ولا يكلَّف إلا ما يطيق، فإن كلّفتموهم فأعينوهم، ولا تعذّبوا، عبادَ الله، خَلقاً أمثالكم»[4].

* * *

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٥٦.

[2] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم ٢٥٧٤ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٥٩.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٢٨٤وقال عنه: صحيح.

وأردفت: و لعل مِن أرقى الحقوق وأكثرها تحضراً، أن يُلغى اسم العبد والأمة من تاريخ الرِّق، فقد أصبح هذا حقاً من حقوق الرقيق في مدرسة محمد ﷺ. لقد علّم الناس فقال: «لا يقُل أحدكم عبدي وأمتي، وليَقُل فتاي وفتاتي وغلامي»[1]. كما يخاطَب الأحرار.

* * *

وأردفت: أما تفصيل التعامل مع الرقيق والخدم، والرحمة بهم، فقد بيّن هذا رسول الله ﷺ في مناسبات كثيرة.. إذ علّم الناس أولاً العفوَ عن الرقيق والخدم إن هم أخطؤوا أو أساؤوا، بل أكد هذا على الناس مهما تعددت مرات الخطأ أو الإساءة، فقد رُوي أنه جاءه رجل فقال: « يا رسول الله كم أعفوا عن الخادم؟ قال: كل يوم سبعين مرة »[2].

ثم علّم الناس كيف يعاملوهم في حالَي الإحسان والإساءة فقال: « إن أحسنوا فاقبَلوا، وإن أساؤوا فاعفوا، وإن غلبوكم فبيعوا »[3].

أي أن معاملتهم يجب أن تكون بالحسنى والرحمة على كل حال... حتى إذا تكاثرت إساءاتهم.. وبلغ الأمر أن تعذر إصلاحهم.. فلا يُقسى عليهم، بل يباعوا وينتهي الأمر.

وهذا ما أكّده في مناسبة أخرى فقال: « من لاءمكم من خدمكم فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ومن لا يلائمكم من خدمكم فبيعوا، ولا تعذبوا خلق الله عزّ وجلّ»[4].

أما أن يقسو المسلم على الرقيق والخدم، ولو بتأخير الطعام عنهم، فذلك من الذنوب التي يحاسَب عليها، قال ﷺ: «كفى إثماً أن تَحبس عمَّن تملك، قوتهم»[5].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٦٦.

[2] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم ٢٢٨٩ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم ٢٢٨٣ وقال عنه: صحيح.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٧٣٩.

[5] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم ٢٢٨٧ وقال عنه: صحيح.

بل الواجب على المسلم أن يعترف بالجميل للرقيق أو الخادم الذي أعد له طعامه. قال ﷺ: «إذا أصلح خادم أحدكم له طعامه، فكفاه حرَّه وبرده، فليُجلسه معه، فإذا أبى فليناوِله في يده»[1].

وهنا بادر الأب ستيفانو قائلاً بإعجاب: لو أن ابن الرجل كان مكان الخادم في مثل هذا الموقف، لما تعدى هذا في معاملته والرأفة به! بل لعله لا يناوله في يده!.

* * *

قلت: أما إذا حدث العكس، وحلَّت القسوة على الرقيق والخدم مكان الرأفة والرحمة، فذلك أمر لا يُحسد عليه فاعله! لما يترتب عليه من شديد العناء.. فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: «من لطم مملوكه أو ضربه، فكفارته أن يُعتقه»[2].

فقال الأب ستيفانو: هنيئاً للرقيق في مدرسة محمد، فقد تحولت عقوبته إلى رحمة له! فهو إن نـزلت به قسوة سيده، فقد رُفعت عنه ربقة العبودية!!!.

* * *

قلت: ولم يبق هذا التعليم محصوراً في المجال النظري، بل تعداه إلى المجال التطبيقي، كما هو دأب التعليم في مدرسة رسول الله ﷺ.

فذات يوم، عَجِل شيخٌ فلطم خادماً له، فقال له سويد بن مقرِّن — صحابي، وهو أخو النعمان بن مقرِّن – «عَجِزَ عليك إلا حُرُّ وجهها! لقد رأيتني سابع سبعة من بني مقرِّن مالنا خادم إلا واحدة، لطمها أصغرنا، فأمَرَنا رسول الله ﷺ أن نعتقها»[3].

وجاء عن ابن هذا الصحابي، معاوية بن سويد بن مقَرِّن أنه قال: «لطمتُ مولى لنا، فهربت، ثم جئت قبيل الظهر، فصليت خلف أبي، فدعاه ودعاني، ثم قال له: امتثل منه – أي اقتص منه – فعفا»[1].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٤١٥ – صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٧٠ برواية أخرى.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٣١٣٠ — صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم/٢٢٧٨، وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٣١٣٣.

وهنا بادر الأب ستيفانو قائلاً بإعجاب: يا لله! أيقتص العبد من سيده!! إن هذا أمر لم يعرفه تاريخ العبيد عند الغربيين، لا في القديم ولا في الحديث القريب قبل إلغاء العبودية.

ثم تفكر قليلاً وقال: الآن عرفت مستند المستشرق الأمريكي (سنكس) في قوله: «ورعى محمد حق الرقيق، وأمر بمعاملته كعضو من الأسرة»[2].

قلت: ولو لم يعفُ هذا الرقيق عن ابن سيده، لكان من حقه أن يُعتَق، فسويد يعرف حكم لطم الرقيق في مدرسة محمد ﷺ، ويعرف الحديث النبوي الذي يقول: «من لطم مملوكه أو ضربه، فكفارته أن يعتقه»[3].

* * *

وأردفت: وتحوُّلُ القسوةِ على الرقيق إلى رحمة بهم قد يتجاوز من وقعت عليه القسوة، إلى غيره من فئته، فتحلُّ الرحمة على المجموعة برحمة الفرد! فقد رُوي عن الصحابي أبي مسعود البدري أنه قال: «كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي: اعلم أبا مسعود، فلم أفهم الصوت من الغضب. فلما دنا مني، إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: اعلم أبا مسعود أن الله عز وجل أقدر منك على هذا الغلام. فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً»[4].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٣١٣٢.

[2] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص٤٢.

[3] تقدم في الصفحة السابقة.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم/٢٢٧٧ وقال عنه: صحيح - وفي رواية: «فقلت يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى. فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار».

تقول البريطانية الباحثة في الأديان (كارين أرمسترونغ) في كتابها (محمد): «كان غرس الشفقة والتراحم وتنمية الإحساس بهما، من العناصر الأساسية في الرسالة الإسلامية منذ البداية.. وكان محمد هنا أيضاً يمثل القدوة، وجاء في الأثر أنه شاهد ذات يوم أحد الموالي وهو يقوم بعمل شاق عسير، فتسلل إليه من الخلف، ووضع يديه على عيني الرجل على نحو ما يفعل الأطفال، وأجاب المولى أنه لا بد أن يكون النبي، إذ لن يفكر غيره في تخفيف عنائه. بمثل هذه اللفتة الرحيمة» ص ٣٤٢-٣٤٣.

بل إن غير أبي مسعود من تلاميذ مدرسة محمد ﷺ فعل أكثر مما فعله أبو مسعود... فقد رُوي عن السيدة عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «جاء رجل فقعد بين يدي رسول الله ﷺ فقال: إن لي مملوكِين يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله ﷺ: إذا كان يوم القيامة، يُحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافاً لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتُصّ لهم منك الفضل. فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي، فقال له رسول الله ﷺ: أما تقرأ قول الله: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[١]. فقال الرجل: يا رسول الله، ما أجد لي ولهؤلاء خيراً من مفارقتهم، أُشهدك أنهم كلهم أحرار»[٢].

* * *

وأردفت: هذا كله إن كان الرقيق يستحق العقوبة! فإن لم يكن يستحق العقوبة وقُسيَ عليه.. فهذا له شأن آخر.. وحسابه على الله سبحانه. فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: «من ضرب مملوكاً ظلماً أُقيد منه يوم القيامة»[٣]. ورُوي عنه أنه قال: «من قذف مملوكه، بريئاً مما قال، أقيم عليه الحد يوم القيامة، إلا أن يكون كما قال»[٤].

* * *

وأردفت: أما معاملته ﷺ لمن كان يخدمه، فيلخصها الحديث التالي: حدَّث خادمه وصاحبه أنس بن مالك قال: «خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ، ولا: لِمَ صنعت؟ ولا: ألا صنعت»[٥].

---

[١] الأنبياء /٤٧.

[٢] صحيح النرغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٢٩٠ وقال عنه: صحيح.

[٣] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٢٨٠ وقال عنه: صحيح لغيره.

[٤] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٢٨١ وقال عنه: صحيح.

[٥] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٧٨.

* * *

وأردفت: هذا عن حقوق الرقيق والخدم. أما عن واجباتهم تجاه الله سبحانه وتجاه مواليهم، فكان أداؤها كله خيراً ومنفعة لهم، ورحمة بهم في الدنيا والآخرة، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أيُّما عبدٍ أدى حق الله وحق مواليه فله أجران»[١]، وروي عنه أنه قال: «العبد إذا نصح سيده، وأحسن عبادة ربه، كان له أجره مرتين»[٢].

* * *

وأردفت: ولن نَعجب بعد هذا إن قرأنا الحديث النبوي التالي، فقد روى عنه ﷺ أنه قال: «للعبد المملوك الصالح أجران» قال أبو هريرة راوي الحديث: «والذي نفسي بيده، لولا الجهاد في سبيل الله، والحج، وبرّ أمي، لأحببت أن أموت وأنا مملوك!»[٣].

وهنا بادر الأب ستيفانو قائلاً بابتهاج: يا لمحمد! لقد صارت العبودية بما نالته من الرحمة في مدرسته، شرفاً يؤْثره الصالحون..!

* * *

قلت: وبرغم كل هذه المعاملة الرؤوفة الرحيمة بالأرقاء والخدم، التي علّمها رسول الله ﷺ في مدرسته، فقد دعا إلى رحمةٍ بهم أكبر من هذه وأعمق.

قال: وهل هناك أكبر مما ذكرتَ؟

قلت: أجل، لقد دعا ﷺ إلى تحريرهم من ربقة العبودية، قبل أكثر من /١٤٠٠/ عام، إذ كان يغتنم كل مناسبة ليدعو الناس إلى عتق أرقائهم فيقول: «من أعتق رقبةً مؤمنةً، أعتق الله بكل عضو منها، عضواً منه من النار»[٤].

---

[١] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٦١.

[٢] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٦٠.

[٣] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٦٢ – وانظر تخريج الحديث في فتح الباري (باب العِتق) ففيه قول مرجوح برفع كلام أبي هريرة.

[٤] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٦٨١.

ويقول: « أيُّما رجلٍ أعتق امرءاً مسلماً، استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار»[1].
ويقول: « أيُّما امرىءٍ مسلم أعتق امرءاً مسلماً، فهو فكاكه من النار، يجزي بكل عظم منه عظماً منه. وأيُّما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة، فهي فكاكها من النار، يجزي بكل عظم منها عظماً منها..»[2].

* * *

وأردفت: بل هناك رحمة بالرقيق مفعمة بالجمال والمشاعر الإنسانية علّمها رسول الله ﷺ الناس في مدرسته إذ قال: «أيما رجلٍ كانت له جارية، فأدبها وأحسن تأديبها، وأعتقها وتزوجها، فله أجران»[3].

فبادر الأب ستيفانو قائلاً بإعجاب: أي رحمة هذه؟! لقد ترقّت رحمة محمد بالأَمَة المملوكة، من درجة العبودية إلى درجة الزوجة الحرة!.

* * *

قلت: وبعد كل هذه الرحمة التي فاضت بها نفس رسول الله ﷺ تجاه الرقيق والخدم، وعلّمها تلاميذه في مدرسته، لا عجب إن عرفتَ أن آخر وصية أوصى بها المسلمين قبل وفاته، كانت وصيته بمِلْك اليمين.. فقد روى كعب بن مالك قال: قبل وفاة رسول الله ﷺ بخمسة أيام، سمعته يقول، وأُغمي عليه هنيهة ثم قال: « اللّهَ اللّهَ فيما ملكت أيمانكم، أشبعوا بطونهم، واكسوا ظهورهم، وألينوا لهم القول»[4].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٣٣.

[2] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم /٤٤٦٥ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٣٦١ وقد أورد البخاري هذا الحديث برواية أخرى تقول: قال ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بمحمد. والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه. ورجل كانت عنده أمة، فأدبها فأحسن تأديبها، وعلّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران». الحديث رقم /٩٥.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم ٢٢٨٨ وقال عنه: صحيح لغيره.

وروي عن أنس بن مالك أنه قال: «كان آخر وصيةِ رسـول الله ﷺ حين حضره الموت: الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم. وما زال يغرغر بها في صدره، وما يفيض بها لسانه»[1].

*　　　*　　　*

وأردفت: وكل ما سلف من رحمة بالرقيق والخدم، إنما هو تفصيل لِما أجملته آيات القرآن الكريم التي نـزلت توصي بهم وتقول: ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً... وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾[2].

وتقول:﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾[3].

وتقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾[4]. ولعلَّ الرقيق يكون أتقى من سيده، فيكون أكرم على الله سبحانه منه.

*　　　*　　　*

قال الأب ستيفانو: يحضرني الآن قولٌ للمستشرق الفرنسي (إميل درمنغم) قرأته في كتابه (حياة محمد) يقول: «إن محمداً قد أباح الرق، ولكنه نظَّمه، وضيَّق حدوده، وجعل العتق عملاً خيِّراً، بل كفَّارةً عن بعض المعاصي» وإنها لشهادة حق. لكن ألا ترى معي أن عهد الرقيق قد انتهى إلى غير رجعة، بعد إعلان حقوق الإنسان ومَنْع الرقيق في العالم كله؟

---

[1] تخريج أحاديث فقه السيرة للألباني الحديث رقم /٤٦٨ وقال عنه: صحيح – وانظر السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٨٦٨.

[2] النساء /٣٦.

[3] النور/٣٣.

[4] الحجرات /١٣.

قلت: هل أنت جادٌّ في هذا؟

قال: من الممكن أن أكون جاداً في هذا، لولا أن الواقع يكذِّبه!

قلت: كيف؟

قال: لقد أُلغي الرِّق في شرعة حقوق الإنسان المكتوبة على الورق، والمحفوظة في الأدراج، لكنَّ الحقيقة شيء آخر.

قلت: أفصِح.

قال: إن الرقَّ ينتشر اليوم في مجتمعاتنا بصورٍ أقل ما يقال فيها أنها أبشع من كثير من الصور القديمة!! لقد زودتنا الحضارة الغربية اليوم بمادة إعلامية عن مَنْعِ تجارة الرقيق من الناحية النظرية، وبخاصة الأسود منه. لكنها من الناحية العملية الواقعية زودتنا بأساليب متنوعة لحماية تجارة الرقيق! وبخاصة الأبيض منه.. بل هي غالباً لا تفرق بين الأبيض والأسود... حيث بات لتجارة هذا الرقيق مؤسسات خاصة تقوم على اكتساب الأموال من إدارة شبكات الدعارة في مختلف أرجاء المعمورة، فتجري المتاجرة بأعراض النساء.. وبيعهنَّ في أسواقٍ سِرّية لمن يدفع أكثر..

وإلى جانب رقيق الدعارة، فهناك رقيق المخدِّرات.. الذي تسيطر عليه شبكات الاتجار بالمخدرات.. المحمية بعصابات من المجرمين القتلة، مما يسمى (المافيات). والرقيق هنا، يباع منه الرجال والنساء على السواء.

وأضاف: ولستُ أدري، لماذا تُسلِّط وسائل الإعلام الأضواء على رقيق المخدِّرات، أكثر مما تسلطها على رقيق الدعارة؟؟!

قلت: وهل تتوقع لمثل تجارة الرقيق الحضارية! هذه، النموَّ والازدهار؟

قال: بل هي في نمو وازدهار.. طالما أن وسائل إعلامنا، وقوانيننا البشرية.. تعلِّم الناس أن (الغاية تبرر الواسطة).

قلت: لكنَّ الحضارة الغربية اليوم، كلها قائمة على هذا المبدأ.

قال: ولن يقضي على الحضارة الغربية القائمة اليوم، سوى هذا المبدأ.

* * *

**١٠- رحمته باليتيم:**

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: ثم ماذا علّم محمد الناسَ في مدرسته مـــن أبـــواب الرحمة؟

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ باليتيم، فقد رغّب الناس بالتقدم لكفالة اليتيم.. حتى يضمن للأطفال الذين فقدوا آباءهم، الرعاية والتربية التي يحتاجونها حتى يبلغوا أشُدَّهم، ويصبحوا أَكْفَاء للسعي على أنفسهم، فقال: « من ضمّ يتيماً له أو لغيره، حتى يغنيه الله عنه، وجبت له الجنة »[١].

بل هو قَرَنَ كافل اليتيم إلى نفسه فقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنـــة هكـــذا، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً»[٢].

ونظراً لما تستدرّه الرحمة باليتيم من كسرٍ لقسوة النفس، وتليينٍ لها، جعلها ﷺ علاجاً لهذه القسوة. فقد جاءه رجل مرةً يشتكي قسوة قلبه وبُعده عن الرأفة والرحمة، فقال له: «أتحب أن يلين قلبك، وتدرك حاجتك؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه، وأطعمه من طعامك، يَلِن قلبك، وتدرك حاجتك»[٣].

* * *

وأردفت: هذا إن كان اليتيم فقيراً لا مال له، ولا يجد من يكفله، فلكافله مـــن الأجر والثواب ما سلف... أما إن كان اليتيم غنياً ذا مال، وتســـابق ذوو النفـــوس الضعيفة لكفالته من أجل ماله، فقد سدّ رسول الله ﷺ الطريق عليهم، وحذَّرهم عاقبة أكل مال اليتيم، فقال: « اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال:

---

[١] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٨٨٢.

[٢] صحيح البخاري الحديث رقم /٤٨٩٢-٥٥٤٦ – والسلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٨٠٠.

[٣] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم /٨٠ وقال عنه: صحيح.

الشرك بالله، والسحر،وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات »[1].

وهكذا صار أكل مال اليتيم مقروناً بالشرك بالله، وغيره من الأمور التي تهلك صاحبها. وكان هذا التحذير كافياً لإحجام ذوي النفوس الضعيفة عن الطمع في مال اليتيم.

قال الأب ستيفانو: لقد صدق المؤرخ الغربي (وليم موير) في كتابه (حياة محمد) إذ قال: «نعمْ.. كان محمد رحمة حقيقية لليتامى»[2].

* * *

قلت: أما أصحاب النفوس السليمة السويّة مِن كَفَلة الأيتام، فقد كان لهم مع مال اليتيم شأن آخر. روى ابن عباس قال: «لما أنزل الله عز وجل ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[3] و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[4] انطلق من كان عنده يتيم، فعزل طعامه من طعامه، وشرابه من شرابه، فجعل يَفضُل من طعامه، فيُحبس له حتى يأكله أو يَفسد. فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[5] فعادوا فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم»[6].

فقال الأب ستيفانو: لقد كان من حسن حظ محمد، أنه وُفِّق بمجموعة من التلاميذ يحاسبون أنفسهم قبل أن يُحاسَبوا.

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٥٦٠.

[2] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص ٤٦.

[3] الأنعام /١٥٢ – الإسراء/٣٤.

[4] النساء/١٠.

[5] البقرة /٢٢٠.

[6] صحيح وضعيف سنن أبي داود للألباني الحديث رقم /٢٨٧١ وقال عنه: حسن.

قلت: إنه الإسلام أيها الأب ستيفانو، فقبْله كان هؤلاء التلاميذ شأنهم شأن غيرهم..

قال: صدقت.

*           *           *

قلت: وتتالت آيات القرآن الكريم تحض على الرأفة والرحمة باليتيم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[1].

وتجعل توفير الطعام له من الأمور التي يَشكر بها المؤمنُ ربَّه على نِعمه عليه، قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ{١٤} يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ﴾[2].

وتمتدح من يتصدق بماله المفضَّل لديه، على الأقرباء واليتامى والمساكين من المحتاجين، قال تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ..﴾[3].

وتنهى عن القسوة على اليتيم وتذمُّ من يقترفها بحقه، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ{١} فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[4].

*           *           *

وأردفت: ثم تتالت آيات القرآن الكريم تبين أحكام كفالة اليتيم، وتحفظ له ماله، رحمةً به ورأفة، ريثما يبلغ أشده، ويشتد عوده، ويصبح قادراً على إدارة شؤون نفسه بنفسه.

وهنا بادر الأب ستيفانو قائلاً: ومتى يبلغ اليتيم أشُدَّه، ويصبح كفْئاً[5] لأن يدير شؤون نفسه بنفسه؟

---

[1] الضحى /٩.

[2] البلد/١٤-١٥.

[3] البقرة /١٧٧.

[4] الماعون /١-٢.

[5] كلمة كفء: يجوز فيها تسكين الفاء وضمها، فإن سكِّنت كتبت همزتها مع تنوين النصب على نبرة (كفْئاً)، وإن ضُمت، كتبت همزتها مع تنوين النصب على واو (كُفُؤاً).

قلت: لقد وضع رسول الله ﷺ حداً لِسنِّ اليُتم، إذا بلغه اليتيم انتـــهى يُتمـــه، وصار مكلَّفاً.

قال: وما هو حدُّ سنِّ اليُتم؟

قلت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُتْم بعد الاحتلام»[1].

* * *

### ١١- رحمته بالضعفاء والمساكين والفقراء وذوي الحاجات والمرضى وأصحاب البلاء[2]:

قال الأب ستيفانو: ثم ماذا علّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالضـــعفاء والمســـاكين والفقراء وذوي الحاجات والمرضى وأصحاب البلاء. ولو رحتُ أستعرض لك ما ورد عنه في هذا، لضاق بنا الوقت، لكن أحدثك بما يشفي غلتك.. وأوَّله حديثٌ لا يقرؤه مسكين أو فقير أو ضعيف إلا حمد الله سبحانه على ما هو فيه.

قال: ما هو؟

قلت: قال ﷺ داعياً ربه: «اللهم أحييني مسكيناً وأمِتني مسكيناً، واحشرني مع المساكين»[3]. فمن لا يغتبط بالتشبّه برسول الله ﷺ وصحبته يوم القيامة؟!

وأردفت: ومِن هذا المنطلق انطلق ﷺ في رحلته مع الضعفاء والمساكين.. منـــذ بداية بعثته. فقد كان هؤلاء هم الدعامة الأولى في الدعوة الإسلامية، وكانوا من أوائل من آمن بها واحتضنها.. فكان ﷺ يجلس إليهم، ويقربهم إليه.. حـــتى نقـــم عليـــه المشركون من سادة قومه، لاختياره هؤلاء عليهم! فقد روى عبد الله بن مسعود قال: « مَرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وعمّار وخبّاب ونحوهم من ضعفاء المسلمين.. فقالوا يا محمد؛ اطردهم، أَرَضيتَ هؤلاء من قومك؟! أفـــنحن

---

[1] صحيح وضعيف سنن أبي داود للألباني الحديث رقم /٢٨٧٣ وقال عنه: صحيح.

[2] جمعتُ هذه الأوصاف كلها في باب واحد، بسبب ورودها متجاورة في الأحاديث النبوية، وبسبب تقارب معانيها.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٠٨.

نكون تبعاً لهؤلاء؟! أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟! فلعلك إن تطردهم أن نأتيك. قال: فنزلت: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] »[2].

وهكذا سارت رحمة محمد ﷺ بالضعفاء والمساكين.. لقد أوصاه ربه سبحانه بهم، فهو لن ينسى هذه الوَصاة.. لقد اختارهم على المستكبرين من مشركي قومه، وعقد مقارنة بين الفئتين فقال: «ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضاعف لو أقسم على الله لأبرّه. ألا أخبركم بأهل النار: كل عُتُلٍّ جوَّاظٍ مستكبر»[3].

قال الأب ستيفانو: ومن لا يحب أن يكون ضعيفاً مسكيناً بعد هذا؟!.

قلت: و لم تفتر صحبته ﷺ معهم، بل كانت تزداد مع الأيام.. وطالما رآه الناس يسير مع المسكين، أو مع العبد، أو مع الأرملة، أو مع أيٍّ من الضعفاء.. يسمع منهم، ويخفف عنهم، ويقضي حوائجهم. فقد حدَّث بعض أصحابه قال: «كان رسول الله ﷺ لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد، حتى يقضي له حاجته»[4].

* * *

وأردفت: وكان ﷺ يدعو المسلمين إلى الرأفة والرحمة بهم، وتقديم يد العون والمساعدة لهم، ومَن فَعَل.. فإنما ينتظره الجزاء الأوفى الذي لا يفوز به إلا المقرَّبون المقرَّبون عند الله.. فقد روي عنه أنه قال: « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار »[5].

---

[1] الأنعام /٥٢.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٢٩٧.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٦١٠.

[4] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم /٩١٣٦ وقال عنه: صحيح.

[5] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم /٥٩٩٣ وقال عنه: صحيح.

وكيف لا يكون ثواب مَن رحم هؤلاء، وقدّم يد العون لهم، أجزل الثواب، وهم خير عباد الله؟! فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بخير عباد الله، الضعيف المستضعف ذو الطمرين، لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرَّه»[1].

* * *

وأردفت: وكان ﷺ دائم المراعاة لحال الضعفاء والرفق بهم، حتى في شؤون العبادة، فقد روى عنه أبو سعيد الخدري قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة العتمة فلم يخرج إلينا حتى مضى نحوٌ من شطر الليل. فقال: خذوا مقاعدكم، فأخذنا مقاعدنا. فقال: إن الناس قد صلوا وأخذوا مضاجعهم، وإنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة، ولولا ضعف الضعيف، وسَقَم السقيم – وفي رواية: وحاجة ذي الحاجة – لأخّرت هذه الصلاة إلى شطر الليل»[2].

وروي عنه ﷺ أنه قال: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن في الناس الضعيفَ والسقيمَ وذا الحاجة»[3].

وقال: «من أَمّ قوماً فليخفف، فإن فيهم الكبير، وإن فيهم المريض، وإن فيهم الضعيف، وإن فيهم ذا الحاجة. فإذا صلّى أحدكم وحده فليصلِّ كيف شاء»[4].

* * *

وأردفت: ثم كان ﷺ يوصي الأقوياء من الناس بالضعفاء منهم. فقد روي عنه أنه قال لعمر بن الخطاب: «يا عمر، إنك رجل قوي، فلا تُؤذِ الضعيف»[5].

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٩٠٤ وقال عنه: صحيح لغيره.

[2] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٦١٨ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٧١٦.

[4] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /١١٣٤ وقال عنه: صحيح.

[5] مناسك الحج والعمرة للألباني الحديث رقم /٣٢ وقال عنه: هو حديث قوي.

وكان يراعي ذلك هو بنفسه، فقد حدَّث بعض أصحابه قال: «كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير، فيُزجي الضعفاء، ويُردف، ويدعو لهم»[1].

بل هو كان يبحث عن الضعفاء ليضمهم إليه ويقربهم منه، ويرغِّب الناس بذلك حتى تعمَّ الرحمة بهم. فقد روي عنه أنه قال: «ابغوني الضعيف، فإنكم إنما تُرزقون وتنصرون بضعفائكم»[2].

ولهذا كان ﷺ دائم المشاركة للضعفاء في مناسباتهم.. ليعطي القدوة للناس من نفسه. حدّث بعض أصحابه قال: «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم»[3].

* * *

وأردفت: ولم تقتصر وَصاته ﷺ برحمة الضعفاء على الصعيد الفردي فقط، بل هو أراد أن تعمَّ الرحمة بهم جميع الأمة عندما قال: «لا قُدِّست أمّة لا يعطى الضعيفُ فيها حقه غير مُتَعْتَع»[4].

فقال الأب ستيفانو: أين منا هذا، اليومَ؟! ومَن يعطي الضعيف حقه غير متعتع؟!

قلت: المحاكم تعطيه حقه غير متعتع، فأبوابها مُشْرَعة لأصحاب الحقوق.

قال: وكيف يصل الضعيف إلى المحاكم، ودونها أجور المحامين، وأجور المعاملات، ورسوم البلديات، ورسوم العقارات... إنه لن يصل إلى حقه إلا بعد أن يكون قد دفع أكثر من قيمته!!

قلت: وأين يكمن العيب؟

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢١٢٠.

[2] صحيح وضعيف سنن النسائي للألباني الحديث رقم /٣١٧٩ وقال عنه: صحيح.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢١١٢.

[4] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /١٨١٨ وقال عنه: صحيح – غير متعتع: أي من غير أن يصيبه قَلَقٌ أو أذىً أو ضرر.

قال: العيب يكمن في نُظُم القضاء السائدة في هذه الأيام.. فهي نُظُم لا يُفيد منها إلا الأقوياء الأغنياء.

قلت: وما الحل؟

قال: لو كان لي صوتٌ يُسمَع، لناديت بالإقبال على مدرسة محمد.. ففيها الحل الذي يوصل إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، ولو كان جالساً في عُقر داره.

قلت: لعلّ هناك مَن يَسمع.

* * *

وأردفت: أما الفقراء؛ فطالما عُني ﷺ بأمرهم.. حتى أنه خصَّهم بمكان في مسجده، سُمّي (الصفّة)، كان يجتمع فيه فقراء المسلمين، ويبيتون فيه، كي يتنبه الناس إلى وجودهم كل يوم خمس مرات.. فيقدمون لهم ما يفي بحاجتهم ويقوم بأودهم، ريثما يتمكن كلٌّ منهم من السعي على نفسه.

وكان ﷺ يذكِّر المسلمين دائماً بالفقراء ويقول: «أفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمن، كسوتَ عورته، أو أشبعتَ جوعته، أو قضيت حاجته»[١].

بل هو نَقَلَ للناس معاتبة الله سبحانه لهم يوم القيامة في أمر الفقراء، فبيَّن فيما يرويه عن ربه، في الحديث القدسي، أن الله سبحانه يقول لابن آدم يوم القيامة: «يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمتَ أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمتَ أنك لو أطعمته لوجدتَ ذلك عندي. يابن آدم، استسقيتك فلم تسقني. قال يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي»[٢].

* * *

[١] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٠٩٠ وقال عنه: حسن.

[٢] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٦١.

وأردفت: وكثيراً ما رأيناه ﷺ يطيِّب خواطر الفقراء، فينسيهم ألم الفقر وحدّة الجوع؛ بما كان يُغدق عليهم من رحمته ورأفته بهم، وعطفه عليهم.. حتى صاروا يشعرون بأنهم لا يقلُّون مكانةً عند الله عن الأغنياء ، بل لعلهم يتفوقون عليهم. وبذلك زال ألم الفقر ونقمته من نفوسهم[1]، وباتوا راضين هانئين سعداء. فقد روى أبو ذر الغفاري، وكان منهم، قال: قلت: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثور – أي الأغنياء – بالأجور، يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضول أموال يتصدقون بها وليس لنا مال نتصدق به. فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر، ألا أعلِّمك كلمات تدرك بها من سبقك، ولا يلحقك من خلفك، إلا من أخذ بمثل عملك؟ تكبِّر الله دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وتحمده ثلاثاً وثلاثين، وتُسَبِّحُه ثلاثاً وثلاثين، وتختمها بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. من قالها غُفر له ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر»[2].

وبعدما جعلهم ﷺ يشعرون بشعور الأغنياء، أمرهم بالصدقة كما أمر الأغنياء، مما مكّن عندهم الشعور بعزة النفس، وكان هذا من أبرّ الرحمة بهم، فقد روى أبو ذرٍّ أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «على كل نفس، في كل يوم طلعت فيه الشمس، صدقة منه على نفسه. قلت يا رسول الله، من أين نتصدق؟! وليس لنا أموال. فقال: إن من أبواب الصدقة: التكبير، وسبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وأستغفر الله. وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وتعزل الشوكة عن طريق الناس والعظْمة والحجر. وتهدي الأعمى. وتُسمع الأصم والأبكم حتى يفقه. وتدُلُّ المُستَدِلَّ على

[1] ولعل مما يصور نظرة المجتمع الجاهلي الدونية إلى الفقير – التي غيّرها رحمة النبي ﷺ به – أبيات عروة بن الورد حيث يقول:

| | |
|---|---|
| دعيني للغنى أسعى فإني | رأيت الناس شرُّهم الفقيرُ |
| وأبعدُهم وأهونُهم عليهم | وإن أمسى له حَسَبٌ وخِيرُ (فضل) |
| ويُقصيه النديُّ وتزدريه | حليلته وينهرهُ الصغيرُ. |

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٠٠.

حاجة له قد عَلمت مكانها. وتسعى بشدة ساقيك إلى اللهفان المستغيث. وترفع بشدة ذراعيك مع الضعيف. كل ذلك من أبواب الصدقة منك على نفسك»[1].

ثم واساهم ﷺ المواساة التي تطيب بها كل نفس، ويرنو إليها كل مؤمن بـــالله، عندما قال: «اطّلعتُ في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء»[2].

قال الأب ستيفانو: لكن ألا ترى معي أن مدرسة محمد عالجت مشكلة الفقـــر بالوعود الأخروية، دون أن تعمل على تغيير الواقع المادي؟ بينما جاءت الشيوعية مثلاً في العصر الحديث، تنادي بضرورة اقتسام الثروة بين الأغنياء والفقراء، لتغير الواقـــع المادي، وتحقق العدالة في توزيع الثروة.

قلت: على رِسْلِك أيها الأب ستيفانو، فلو درستَ قانون الزكاة والصـــدقة في الإسلام حق الدراسة، لما قُلتَ ما قلت.

قال: وكيف أدرسه؟

قلت: ادرسه من خلال دراسة تاريخ المجتمع الإسلامي.. في الفترات التي كـــان يطبَّق فيها القانون الإسلامي حق التطبيق.

قال: فماذا أجد إن فعلتُ؟

قلت: سوف تجد أن قانون الزكاة والصدقة استطاع أن يلغـــي مـــن المجتمـــع الإسلامي شيئاً اسمه الفقر.. بل لقد نُسي في طرقات المدن الإسلامية منظـــر الفقـــراء والمتسولين.. لأنه لم يعد يراه أحد! حتى أن موظفي الحكومة المختصين بتوزيع الزكاة والصدقة على المحتاجين صاروا لا يجدون من يَقبل منهم ما يوزعونه.. فقـــد اكتفـــى الجميع![3]

أتدري ما السبب في هذا؟

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٥٧٥.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٠٠٢.

[3] انظر في هذا، الكتب التي عالجت موضوع (الحضارة الإسلامية)، وتلك التي عالجت موضوع (الاقتصـــاد الإسلامي).

قال: ما السبب؟

قلت: لأن تعاليم مدرسة محمد ﷺ، بحسب أوامر الله سبحانه، تقضي بالإيمان بوعود الآخرة أولاً، ثم إلى جانبها الحلال من مكاسب الدنيا، تماماً كما تقول الآية القرآنية: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1]. وبهذا الاعتدال والتوسط بين الدنيا والآخرة، استمر الإسلام حتى اليوم.. وصار عمره أكثر من /١٤٠٠ عام/.

فبادر قائلاً: أصبتَ، ولقد برقتْ في ذهني الآن بارقة تقول: إن قوة الإسلام تكمن في ذلك المزج الرائع بين الدنيا والآخرة.

قلت: أما الطريقة الشيوعية التي ذكرتَها، فأنت تعلم أنها فشلت، و لم تُعمَّر سوى أقل من قرن، أتدري لماذا فشلت و لم تُعمَّر؟

قال: لماذا؟

قلت: لأمرين رئيسين، الأول: أنها ألغت الآخرة والحياة الروحية من برنامجها تماماً.

والآخر: أنها عملت على تطبيق العدالة المادية عن طريق مصادرة أموال الأغنياء، وتحويلها إلى جيوب المتسلطين الذين لَقَّبوا أنفسهم (الدولة) وصاروا يوظِّفون هذه الأموال في مشاريع لا يَعرِف عنها الفقراء سوى أسمائها المبثوثة في وسائل الإعلام.. وهكذا، بعد أن كان المجتمع يتألف من الأغنياء الحاكمين، والمتوسطين، والفقراء.. صار يتألف من الأغنياء المتسلطين، والمتوسطين، والفقراء.. أضف إلى هذا تلك الكراهية والبغضاء التي انطوت عليها صدور أفراد المجتمع الشيوعي، أغنيائه وفقرائه، بعضهم تجاه بعض.. فهل حُلَّت مشكلة الفقر؟! وأين هذا من وسطية الإسلام.. ومن عدالة الإسلام.. التي تأخذ من الغني وتعطي الفقير، حتى يتقاربا، والجميع متحابُّون متعاونون عاملون للدنيا والآخرة..

---

[1] القصص/٧٧.

وأردفت: بل أكثر من هذا.. إن الغني المسلم يأبى إلا أن يُخرج من ماله نصيب الفقير منه، فإذا عطَّلت الدولة ركن الزكاة ولم تجمعها من الأغنياء، وجدتَ هؤلاء يعملون على تأليف الجمعيات الخيرية فيما بينهم، لتقوم هي بإحياء هذا الركن، فتجمع الأموال التي يسارع الأغنياء بتقديمها عن طيب خاطر، من زكاة وصدقة.. ثم توزعها على الفقراء.. فيبيت هؤلاء وهؤلاء راضين مطمئنين شاكرين لله سبحانه.

قال الأب ستيفانو: لقد شوّقتني لأن أفكّر بإعداد بحث عن حل مشكلة الفقر في مدرسة محمد.

قلت: لو رجعتَ إلى ما كتبه في هذا مفكرو المسلمين لأرحتَ نفسك، ولوجدتَ ضالّتك.. لكن لا بأس، فلعلك إن قمتَ أنت بإعداد مثل هذا البحث، استطعت أن تُعرّف عليه المجتمع الغربي الذي تعيش فيه.

* * *

وأردفتُ عائداً إلى باب الرحمة بالضعفاء: وقد لا يكون الإنسان ضعيفاً ولا فقيراً ولا مسكيناً، بل يكون قوياً غنياً غير محتاج، لكنه يصاب بمرض، أو تحل به مصيبة.. فعند ذلك تضعف نفسه، ويتغلب عليه شعور الإنسان الضعيف.. فيصبح أحوج ما يكون للرحمة والمواساة وتخفيف وقع المصيبة عليه.. ومثل هذا لم تهمله رحمة محمد ﷺ، بل لقد علّم الناس في مدرسته أن مثل هذا الإنسان حقيق بأن لا يجد من الآخرين سوى الرحمة، بل لعل الضعفاء والفقراء والمساكين أقدر منه على تحمل القسوة..

ولهذا فقد تتالت الأحاديث النبوية تبيّن كيفية الرحمة بالمريض وصاحب المصيبة، وتأمر الناس بعيادة المريض ومواساة المصاب. فقد قال ﷺ: «من عاد مريضاً لم يزل يخوض في الرحمة حتى يرجع، فإذا جلس اغتمس فيها»[1].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٩٢٩.

وقال: «خمسٌ من حقّ المسلم على المسلم: ردُّ التحية، وإجابة الدعوة، وشهود الجنازة، وعيادة المريض، وتشميت العاطس إذا حمد الله»[1].

وكان ﷺ يقول للناس: «أطعموا الجائع، وعودوا المريض، وفُكّوا العاني – أي الأسير –»[2].

بل إن عيادة المريض هي من الأهمية بحيث أن الله سبحانه يسأل الإنسان عنها يوم القيامة. فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال في الحديث القدسي: « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم، مرضتُ فلم تعُدني. قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟! قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعُده، أما علمتَ أنك لو عدته لوجدتني عنده »[3]. وهذا تنبيه للمسلم إلى أن عيادة المريض لها من الثواب الجزيل ما لها! عند الله سبحانه.

وكان ﷺ دائماً، يعطي القدوة من نفسه فيزور المريض، ويدعو له بما شاء.. والأحاديث كثيرة في هذا..

* * *

وأردفت: ولعل من أهم مظاهر الرحمة بالمريض، مداواة مرضه، وهذا ما كان ﷺ يأمر به المسلمين دائماً.. فقد روي عنه أنه قال: «إن الله لم يخلق داءً إلا خلق له دواء، عَلِمَه من عَلِمَهُ وجهِلهُ من جَهِلَهُ إلا السّام. قالوا: وما السّام يا رسول الله؟ قال: الموت»[4].

وكثيراً ما كان يذكر للناس بعض الأدوية، مثل الحجامة التي تتصدر اليوم قائمة العلاج في كثير من الأمراض، ومثل الحبة السوداء (حبة البركة) التي اكتُشِف اليوم من منافعها ما يعرف أهميته الأطباء، ومثل العسل وهو غني عن التعريف..

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٨٣٢.

[2] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني – الحديث رقم /١٥٢٣ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٦١.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٦٥٠.

بل هو ذَكَرَ للناس قانوناً طبياً ما يزال الطب اليوم لا يخرج عن مداره، وهو مناسبة الدواء للداء، لِتَحَقُّق الشفاء، فقد قال ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أُصيب دواء الداء، برأَ بإذن الله عز وجل»[1]. أي عندما يُعثر على الدواء المناسب للداء، فلا بدَّ من البُرء بإذن الله عز وجل.

* * *

وأردفت: أما إذا لم يُعثر على الدواء المناسب، ونزل بالمريض ما ينزل من الآلام، فهنا تتكاثر الأحاديث النبوية مخففة عن المصاب مصابه، سواء أكان مرضاً أم غير مرض،واعدةً إياه بحسن الثواب من الله سبحانه.. حتى ليشعر المصاب أن يد الرحمة تمسح على رأسه، فتبعث فيه الأمل والرجاء، وتَعمُر نفسه بالطمأنينة والرضى.

قال ﷺ: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلّا كفّر الله بها عنه، حتى الشوكة يشاكها»[2].

وقال: «ما من مسلم يشاك شوكة فما فوقها، إلا كُتبت له بها درجة، ومُحيت عنه بها خطيئة»[3].

وقال: «ما يصيب المسلمَ من نَصَب ولا وَصَب ولا همٍّ، ولا حُزن، ولا أذى، ولا غمٍّ حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفّر الله بها خطاياه»[4].

بل إن الموت بسبب بعض الأمراض يُعدُّ شهادة يُكتب ثوابها للميت المسلم. قال ﷺ: «الطاعون شهادة لكل مسلم»[5].

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٠٨٤ — وقال المستشرق الإنكليزي (داز) في كتابه (مع الشرق والغرب): «إن قول محمد المأثور عنه: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع) هو الأساس الذي بني عليه علم الصحة، ولا يستطيع الأطباء على كثرتهم ومهارتهم حتى اليوم، أن يأتوا بنصيحة أثمن من هذه».

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٢٠٩ – صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٦٧.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٦٤.

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٢١٠ – صحيح مسلم الحديث رقم /٤٦٧٠.

[5] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني – الحديث رقم /١٥٤٥ وقال عنه: متفق عليه.

بل إن على المسلم أن يَسعد إذا أصابته مصيبة من مرض أو غيره.. لما يراد به منها من الرحمة والخير. قال ﷺ: « من يُرد الله به خيراً يُصِب منه »[1].

بل ليس السعيد المهنّأ من مات دون أن يَعرِض له مرض في حياته! لأن هذا محروم من تكفير سيئاته. فقد روى بعض الصحابة أن رجلاً مات في زمن النبي ﷺ، فقال رجل: هنيئاً له، مات و لم يُبتَلَ بمرض. فقال النبي ﷺ: «ويحك! وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض فكفّر عنه سيئاته»[2].

بل لعل الذين يموتون دون أن يبتلَوا أو يصابوا بمصيبة في حياتهم الدنيا يكونون من النادبين سوء حظهم في الآخرة. فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «يودُّ أهل العافية يوم القيامة، حين يُعطى أهل البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت في الدنيا بالمقاريض»[3].

فقال الأب ستيفانو: لكنْ ألا يمنع المرضُ صاحبه من عبادة ربه التي كانت له في حال الصحة، فيخسر أجر وثواب هذه العبادة؟

قلت: جواباً على مثل هذا قال ﷺ: «إذا مرض العبد أو سافر، كُتب له بمثل ما كان يعمل مُقيماً صحيحاً»[4]. هذا إن منعه المرض من أداء العبادة، أما إن كان يستطيع أداءها بأوضاع غير أوضاعها فلا بأس، ورحمةً به فقد علَّمه النبي ﷺ كيف يؤديها. قال لمريضٍ سأله كيف يؤدي الصلاة؟: «صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»[5].

* * *

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٢١٣.
[2] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني – الحديث رقم /١٥٧٨ وقال عنه: صحيح.
[3] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني – الحديث رقم /١٥٧٠ وقال عنه: حسن.
[4] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني – الحديث رقم /١٥٤٤ وقال عنه: صحيح.
[5] إرواء الغليل للألباني ص ٢٩٩ وقال عنه: صحيح.

وهنا بادر الأب ستيفانو قائلاً بانبهار: أكُلُّ هذه الرحمات في هذا الباب، مِــنْ صُنع محمد؟!

قلت: بل هي من صنع الله سبحانه، على يد ولسان محمــد ﷺ، فمــا هــذه الأحاديث النبوية إلا تفصيل لما أجملته الآيات القرآنية التي تقول: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَـــكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ..﴾[1].

والتي تقول: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[2].

والتي تقول: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[3].

والتي تقول: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ{٩} وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾[4].

والتي تقول عن المؤمنين: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾[5].

والتي تقول على لسان المؤمنين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَــزَاء وَلَــا شُكُوراً﴾[6].

والتي تقول عن المتقين: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[7].

والتي تقول عن المصلين: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ{٢٤} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[8].

---

[1] البقرة /١٧٧.
[2] الحج /٢٨.
[3] الحج/٣٦.
[4] الضحى /٩-١٠.
[5] الإنسان /٨.
[6] الإنسان /٩.
[7] الذاريات /١٩.
[8] المعارج /٢٤-٢٥.

والتي تقول واصفة الكافر: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ{١} فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ{٢} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[١].

والتي تقول عن الكافر الذي يصلى نار جهنم يوم القيامة: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ{٣٣} وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[٢]، والتي تقول على لسان الكافرين متحدثين عن سبب دخولهم جهنم: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ{٤٣} وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[٣].

قال الأب ستيفانو: حسبي ما ذكرتَه من أحاديث وآيات.. لقد جعلتني مقتنعاً بصحة عبارةٍ قرأتها للمستشرق الإسباني (جان ليك) في كتابه (العرب) تقول: «وقد برهن محمد بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى مساعدة، كان محمد رحمة حقيقية لليتامى، والفقراء، وأبناء السبيل، والمنكوبين، والضعفاء، والعمال، وأصحاب الكد والعناء»[٤].

* * *

## ١٢- رحمته أمام الموت:

وأردف قائلاً: ثم ماذا علّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ أمام الموت. فقد روى أسامة بن زيد قال: «أرسلتْ ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابناً لي قُبض فأتنا. فأرسل يقرئ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وما أعطى، وكلٌّ عنده بأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب. فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها. فقام ومعه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، وأُبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ورجال. فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع كأنها في شنّ – أي صوت النّفَس عند الشهيق والزفير – ففاضت عيناه ﷺ.

---

[١] الماعون /١-٣.
[٢] الحاقة /٣٣-٣٤.
[٣] المدثر /٤٣-٤٤.
[٤] ص٤٣.

فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟! فقال: هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[1].

وروى أنس بن مالك قال: «دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القين – أي الحداد – وكان ظئراً [2]لإبراهيم – ابن النبي – فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبّله وشمّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟ فقال: يابن عوف إنها رحمة. ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يَرضى ربُّنا،وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].

وروى بعض أصحابه قال: «أخذ النبي بنتاً له تقضي، فاحتضنها، فوضعها بين ثُدييه، فماتت وهي بين ثُدييه، فصاحت أم أيمن – حاضنة النبي وخادمته – فقيل: أتبكين عند رسول الله؟! قالت: ألست أراك تبكي يا رسول الله؟! قال لست أبكي، إنما هي رحمة، إن المؤمن بخير على كل حال»[4].

وجاء عن القاسم بن محمد عن السيدة عائشة: «أن النبي ﷺ قبّل عثمان بن مظعون وهو ميت، وهو يبكي، أو قال: عيناه تذرفان»[5].

وروي أنه زار قبر أمه ذات يوم، مع جماعة من الناس، فبكى وأبكى مَن حوله، ثم قال: «استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها، فلم يأذن لي. فزوروا القبور تذكركم الموت»[6].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /١٢٠٤ – صحيح مسلم الحديث رقم /١٥٣١.

[2] ظئر الصبي هنا: زوج مرضعته.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /١٢٢٠.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٦٣٢.

[5] صحيح وضعيف سنن الترمذي للألباني – الحديث رقم /٩٨٩ وقال عنه: صحيح.

[6] صحيح السيرة النبوية للألباني ٢٤/١ رواه مسلم عن أبي هريرة.

ولما كانت زيارة القبور تورث صاحبها الرحمة ورقة القلب والخشوع أمام الموت قالﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها، فإنها تُرِقّ القلب، وتُدمِع العين، وتذكِّر الآخرة. ولا تقولوا هجراً»[1].

وأردفت: وما هذه العبارة الأخيرة (ولا تقولوا هجراً) إلا رحمة بالموتى! حتى لا يسبّهم أحد من زوار القبور!

فقال الأب ستيفانو: ألا ما أنبل هذا!

قلت: ومن رحمته ﷺ بالموتى أيضاً؛ ما جاء في الحديث النبوي المشهور، الذي رواه ابن عباس فقال: «مرَّ النبي ﷺ بقبرين فقال: إنهما ليعذّبان، وما يُعذّبان في كبير؛ أما أحدهما فكان لا يستتر – وفي رواية: لا يستنزه – من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة. ثم أخذ جريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة. قالوا: يا رسول الله لِمَ فعلتَ هذا؟ قال: لعله يخفّف عنهما ما لم ييبسا»[2].

فقال الأب ستيفانو: أمّا هذه؛ فرحمة للموتى ودرس للأحياء..

* * *

## ١٣- رحمته بالمرأة:

وأردف قائلاً: ثم ماذا علّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالمرأة.

وأنت تعلم أن أرقى ما ترنو إليه المرأة من الرحمة هو أن تنال حقوقها المشروعة، وأن تتحقق لها العدالة الاجتماعية بينها وبين الرجل.

قال: والمساواة بينهما؟

قلت: المساواة بين الرجل والمرأة أكذوبة.

قال: كيف؟

---

[1] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم/٨٧١٣ وقال عنه: صحيح.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم/٢١١.

قلت: أنت تعلم أن المساواة المطلقة بين أي مخلوقَين أمر مستحيل، لأن طبيعة الفطرة التي فطر الله سبحانه الخلْق عليها هي التفاوت والاختلاف.. حتى بصمات الأصابع عند البشر لا يمكن افتراض التساوي فيما بينها، بل هي تختلف من إنسان إلى آخر..

وبالتالي فإن مساواة المرأة بالرجل مستحيلة، بل مساواة الرجال فيما بينهم، والنساء فيما بينهنَّ، مستحيلة، لأن المساواة تعني المساواة في الحقوق والواجبات.. وهذا غير ممكن، إذ كيف تتساوى حقوق وواجبات الطبيب، مع حقوق وواجبات المهندس، مع حقوق وواجبات المدرّس، مع حقوق وواجبات الفلاح، مع حقوق وواجبات العامل.. فكل رجل أو امرأة من هؤلاء تتناسب حقوقه وواجباته مع الدور الذي أُنيط به في هذه الحياة.. وبالتالي فللمرأة حقوق وواجبات تختلف عن حقوق وواجبات الرجل.. وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان. وإنَّ ما يقول العقل بوجوب تحقيقه، هو توفير العدالة الاجتماعية لكل من الرجل والمرأة.

قال: أصبتَ، فهذا ما يبحث عنه كل من الرجل والمرأة، لكن تلفِتهم وتنحرف بهم عنه، المخططات الخفيَّة لتجار المال والسياسة، وخادمتها المخلصة (وسائل الإعلام).

قلت: إذاً استمع معي إلى الآية القرآنية التي تَعلَّمها تلاميذ مدرسة محمد ﷺ قبل أكثر من /١٤٠٠/ عام. تقول الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[1].

---

[1] الأحزاب/٣٥.

أترى هنا هضماً لحقوق أيٍّ من المرأة أوالرجل؟ أم أن كلاً منهما له من الحقوق بحسب ما قام به من الواجبات؟ أليست هذه هي الرحمة الحقيقية بالمرأة والرجل على السواء؟

قال: هذا حق، وإنه عين ما ترنو إليه المرأة الغربية اليوم ولا تجده!

قلت: لماذا لا تجده؟

قال: لست أدري، فالأمور عندنا في الغرب اليوم متشابكة، بحيث بتنا لا ندري إن كنا أنصفنا المرأة أم ظلمناها!

قلت: بل منكم من يدري.

قال: أوضِح.

قلت: تقول البريطانية الباحثة في الأديان (كارين أرمسترونغ) في كتابها (محمد): «وليس من الإنصاف أن نتهم محمداً والإسلام بكراهية المرأة، فإذا كانت النساء المسلمات اليوم يرفضن بعض الحريات التي نشعر أننا قدمناها إليهن،فلا يرجع سبب ذلك إلى العناد، بل إلى التخبط في النظرة الغربية للمرأة، وفي العلاقات بين الجنسين. فنحن ندعو إلى المساواة وإلى التحرر، ولكننا في الوقت نفسه نستغل المرأة، ونمتهنها، في الإعلانات وفي الكتابات، في الفنون الإباحية، وفي كثير من أشكال الفُرجة الشعبية، بأسلوب يستهجنه المسلمون ويتأذّون منه»[1].

---

[1] ص ٣٥٤ – ولعل من المآسي البشعة التي أوقعتها (دعوة تحرر المرأة الغربية) بالمرأة، إقفال باب الزواج في وجهها! فقد جاء في رسالة (أمريكا دولة تحكمها العصابات) للصحفيَّين الأمريكيين (جاك ليب – لي مورتيمر): «وقد كان من جراء الحرية المطلقة التي نالتها المرأة – الغربية – أن نشأت عدة صعوبات اقتصادية واجتماعية أبرزها وأشدها خطراً، إعراض الرجل الأمريكي عن الزواج لا سيما من الفتيات اللاتي يدعين التحرر و الانطلاق مع أهوائهن، لأنهن في نظره غير صالحات لتكوين أسرة وتربية أطفال.
وهكذا ازدادت أزمة الزواج تعقيداً، وارتفع عدد الفتيات العازبات بضعة ملايين أيضاً. وإذا أمعنا النظر في سبب استفحال هذه المشكلة الاجتماعية، تبيّن لنا أن سبباً آخر يأتي في الطليعة، وهو أن الرجل الأمريكي راح يعمد إلى أهون الوسائل لإشباع غرائزه الجنسية... فالمرأة متوفرة له في جميع الأماكن التي يرتادها، سواء في المكتب أو النادي، في الحانة أو المطعم، أو على شواطئ البحر، فيختار لنفسه الفتاة التي تحلو له،

وهنا بادر الأب ستيفانو إلى القول كمن يودّ الخروج من مأزق: أصبتَ، ألا تحدثني عن الرحمة بالمرأة في مدرسة محمد؟

قلت: لك ما تريد. لكن أخبرني، أتدري مَنْ خَيرُ رجال المسلمين عند رسول الله ﷺ؟

قال: لا.

قلت: قال رسول الله ﷺ مخاطباً رجال أُمّته: «خيركم خيركم للنساء»[1]، وقال في مرّة أخرى: «خياركم خياركم لنسائهم»[2]. أهذا رحمة بالمرأة أم قسوة عليها؟

قال: بل هو رحمة بها ورأفة.

---

ويتخذها= =عشيقة لمدة من الزمن، فلا ترهقه بطلباتها ونفقاتها. حتى فتيات الجامعات والكليات أصبحن يزاحمن خادمات المطاعم والحانات.. والمومسات!! والرجل الأمريكي العادي يفضّل هذا النوع من النساء..

وخلال رحلتنا في الولايات المتحدة لاحظنا أن بيوت الدعارة الرسمية قد قلّت بشكل ظاهر، وقد يتبادر إلى الأذهان أن ذلك شيء ناتج عن تغلب الفضيلة في بلادنا على الرذيلة!.. ولكن الحقيقة المؤلمة عكس ذلك تماماً، فقد تعرضت تلك البيوت لمزاحمة شديدة من قبل الفتيات وطالبات المتعة والمومسات السرّيات، فقضت على قسم كبير منها بالخراب والإقفال!

وفي السنين الأخيرة نشأت وسائل حديثة سادت مع عصر الذرّة والسرعة جنباً إلى جنب، فأصبح هناك (فتيات طريق) و(فتيات رحلات) و (فتيات تحت الطلب) يمكن الاتصال بهن بواسطة رقم معين للهاتف!

وفي المدن الأمريكية الكبيرة، كشيكاغو مثلاً، يشرف على هذا النوع من الفتيات بائعات الهوى، عصابة لها مقر معين، تقدم للفتيات السيارات والبيوت، أو الفنادق الفخمة، وجميع أنواع الخمور، ويجوب= =رجال هذه العصابات أمريكا من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن فتيات بائعات جميلات، لتلبية طلبات الزبائن الملحة..

وعلى الرغم من حملات رجال البوليس الاتحادي في مكافحة الرقيق الأبيض، ففتيات هذا النوع ما زلن يعملن بهدوء، دون أن يتمكن رجال الشرطة من التدخل للحدّ من فسقهن وفجورهن.» ص ٢٦ ترجمة حبيب نحولي.

[1] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم ٥٦٢٧ وقال عنه: صحيح – وانظر في السلسلة الصحيحة الحديث رقم /٢٨٥ – وفي صحيح الترغيب والترهيب الحديث رقم /١٩٢٥.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٨٤.

قلت: أتدري بمن كان رسول الله ﷺ يوصي الرجال؟

قال: لا.

قلت: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً»[1]، أهذا رحمة بالمرأة أم قسوة عليها؟

قال: بل هو رحمة بها ورأفة.

قلت: أتدري من أحبُّ الناسِ إلى رسول الله ﷺ؟

قال: لا.

قلت: روى أنس بن مالك قال: « رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين عليه من عرس فقام – واقفاً – فقال: اللهم أنتم أحبُّ الناس إلي. قالها ثلاث مرات»[2]، أهذا رحمة بالمرأة أم قسوة عليها؟

قال: بل هو رحمة بها ورأفة.

قلت: أتدري ما أفضل متاع الدنيا للمسلم في مدرسة محمد ﷺ.

قال: لا.

قلت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[3]، أهذا رحمة بالمرأة أم قسوة عليها؟

قال: بل هو رحمة بها ورأفة.

قلت: أكان رسول الله ﷺ يوصي بالنساء هذه الوصايا لو كان يعُدُّ المرأة من سَقَطِ المتاع؟

قال: لا.

قلت: بل هي عنده الركن الأساس في بناء الإنسانية، فقد علّمه ربه سبحانه أن المرأة بالنسبة للرجل هي الأم، وهي الابنة، وهي الأخت، وهي الخالة.. هي كل

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /١٩٩٧.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٥٠١.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٦٦٨.

هؤلاء، فأمره سبحانه أن يستوصي الرجال بالنساء خيراً، فقال ﷺ: «إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، إن الله يوصيكم بالنساء خيراً، فإنهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم»[1].

* * *

وأردفت: وكان ﷺ يعرف نظرة الكراهية الجاهلية التي كانت توجَّه إلى المولودة الأنثى في المجتمع الجاهلي. فجعل همّه أن يغيّرها، ويُحِلّ محلها نظرة المحبة والمودَّة والرحمة، وقال: «لا تَكرهوا البنات فإنهن المؤنِسات الغاليات»[2].

وكان ﷺ قدوةً للناس في تطبيق هذا الحديث، فقد رزقه الله سبحانه أربع بنات، كُنَّ مؤنسات له، غاليات على نفسه. أَحبَّهن محبة الأب الرحيم، وسعى عليهن حتى بعد انتقالهن إلى أزواجهن.

وانطلق ﷺ يرغّب الناس برحمة المولودات الإناث، ويبين لهم أنهن منابع الخير لآبائهن، فقال: «من عالَ ثلاثاً من بنات، يكفيهن ويرحمهن ويرفق بهن، فهو في الجنة»[3]، والجنة في الإسلام لا ينالها إلا من سعى لها سعيها..

وقال: «ما من مسلم تدرك له ابنتان فيُحسن إليهما ما صحبتاه أو صحبهما، إلا أدخلتاه الجنة»[4].

وقال: «من كان له ثلاث بنات، فصبر عليهن وأطعمهن وسقاهن وكساهن من جِدَته، كنَّ له حجاباً من النار يوم القيامة»[5]، والنار في الإسلام لا يُحجَب عنها إلا من رحِم ربُّك..

وقال: «من عال ابنتين أو ثلاث بنات، أو أختين أو ثلاث أخوات، حتى يبلغن، أو يموت عنهن، كنت أنا وهو كهاتين، وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى»[1].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٨٧١.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٢٠٦.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٤٩٢.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٧٧٦.

[5] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٩٤.

*　　　　*　　　　*

وأردفت: ثم كان ﷺ قدوة للناس في كل ما قاله، فاعتنى قبل كل شيء بتعليم المرأة حتى تعرف مالها وما عليها، وبذلك تستطيع أن تتمتع بما أغدقه عليها الإسلام من حقوق.. فكان النساء إما أن يجتمعن إليه في وقت مخصوص فيبيِّن لهن ويعلِّمهن، كما في حديث أبي سعيد الخدري، قال: «قالت النساء للنبي ﷺ، غلبَنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه..»[2]. وقد أثنت عليهن زوجته السيدة عائشة في طلبهن العلم فقالت: «نِعمَ النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[3].

وإما أن يأتينه فرادى فيسألنه ليعرفن حقوقهن فيما يعرِضُ لهن من مشكلات.. حدَّثت خنساء بنت خِذام الأنصارية: «أن أباها زوّجها وهي ثَيِّب، فكرهتْ ذلك، فأتت النبي ﷺ، فردَّ نكاحها»[4].

وحدَّث ابن عباس: «أن جاريةً بكراً أتت النبي ﷺ، فذكرت له أن أباها زوّجها وهي كارهة، فخيّرها النبي ﷺ»[5].

وبسبب أن أمر زواج المرأة يُعَدُّ أهم حدث في حياتها، فقد حرص ﷺ أن يُملّكها هذا الأمر، وينتزعه من يد ولي أمرها، سواء أكانت ثيباً أم بكراً، وجعل ذلك حقاً من حقوقها لا يجوز لأحد أن ينازعها فيه، فقال: «الأيِّم أولى بنفسها من وليّها، والبكر تُستأمر في نفسها. قيل: يا رسول الله، إن البكر تستحي أن تتكلم. قال: إذنها سكوتها»[6].

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٩٦.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٩٩.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /١٢٧.

[4] صحيح البخاري الحديث رقم /٦٤٣٢.

[5] صحيح وضعيف سنن ابن ماجه للألباني الحديث رقم /١٨٧٥ وقال عنه: صحيح.

[6] صحيح وضعيف سنن ابن ماجه للألباني الحديث رقم /١٨٧٠ وقال عنه: صحيح.

وجاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: « قلتُ: يا رسول الله، يُستأمر النساء في أبضاعهن؟ قال: نعم. قلت: فإنَّ البِكْر تُستأمر فتستحي فتسكت. قال: سكاتها إذنها»[1].

*  *  *

وجاءته امرأة في أمرٍ غير الزواج فقالت: «إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحِجْري له حِواء. وإن أباه طلّقني وأراد أن ينتزعه مني. فقال رسول الله ﷺ: أنت أحق به ما لم تَنكحي - أي تتزوجي -»[2].

وأردفت: وبمثل هذا تعلمت المرأة المسلمة حقوقها واحداً واحداً.. على يدي نبي الرحمة الذي كان أرحم بها من أهلها.

*  *  *

قال الأب ستيفانو: لقد صدق المستشرق الأمريكي (سنكس) إذ قال: «لقد أوجب محمد حماية المرأة بالاعتراف بحقوقها»[3]. وإني لأُقرّ معه بهذا، لكنني أتساءل: هل كان محمد يسلك سلوك الرحمة هذا مع نسائه هو؟ ويمتعهن بحقوق المرأة التي يعلّمها في مدرسته؟

قلت: أتودُّ أن تعرف سلوك رسول الله ﷺ في بيته؟

قال: أجل.

قلت: لقد سأل أحد الصحابة السيدة عائشة زوجة النبي ﷺ هذا السؤال، فقال: ما كان النبي يعمل في بيته؟ قالت: «كان بشراً من البشر: يفلّي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه»[4].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٦٤٣٣.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٦٨ وقال عنه: حسن.

[3] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص ٤٢.

[4] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٦٧١.

وسألها آخر فقال: ما كان النبي يصنع في بيته؟ قالت: «كان يكون في مهنة أهله – أي يساعد أهله في أعمال المنزل – فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة»[1].

وسُئلتْ مرة ثالثة فقالت: «كان رسول الله ﷺ يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم»[2].

قال الأب ستيفانو: لقد شهدتْ لهذا البريطانية الباحثة في الأديان (كارين أرمسترونغ) في كتابها (محمد) فقالت: «كان محمد دائماً يساعد زوجاته في الأعمال المنزلية، وكان يعتمد على نفسه في كل شؤونه، فكان يصلح ويرقع ملابسه، ويصلح أحذيته، ويعتني بالماعز، وكان يحاول تعليم المسلمين وتربيتهم على زيادة احترام المرأة، ومما يُثبت تقبُّل الناس لرسالته، أنهم قد حفظوا التقاليد التي أرساها، في وقتٍ كان أغلبية البشر في أغلب الديانات، يستنكر اهتمام نبي عظيم بالأعمال المنزلية»[3]. ولقد بِتُّ الآن مقتنعاً معها بما شهدتْ به.

* * *

قلت: أما عدله بين نسائه، فلم يكن يحيد عنه في حَضَرٍ ولا سَفَر، رحمةً بهن من الغيرة المعروفة بين الضرائر.. فقد كان يقسّم الليالي على نسائه، لكل واحدة منهن ليلة منه، في الحَضَر.

حدّث خادمه وصاحبه أنس بن مالك قال: «كان للنبي ﷺ تسع نسوة، فكان يقسم بينهن، فلا ينتهي إلى المرأة الأولى إلا في تسع»[4].

وأما في السَّفَر، فكان لا يفضّل إحداهن على الأخرى في مرافقته، بل كان يُقرع بينهن، حتى تقرّ أنفسهن ويرضَين. حدّثت السيدة عائشة زوجته قالت: «كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخرج، أقرع بين نسائه، فأيتهن يخرج سهمها خرج بها»[1].

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٦٣٥.

[2] صحيح وضعيف الجامع الصغير للألباني الحديث رقم /٩٠٦٨ وقال عنه: صحيح.

[3] ص ٣٥٥.

[4] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٦٥٦.

*　　　*　　　*

وأردفت: ومن شدة لطفه مع المرأة، كان ﷺ يعلِّم الرجال السلوك المناسب مع نسائهم، فقد حدّث خادمه وصاحبه أنس بن مالك قال: «من السنّة إذا تزوج الرجلُ البِكرَ على الثيّب أن يقيم عندها سبعة أيام، وإن تزوج الثيّب على البكر أن يقيم عندها ثلاثاً»[2].

وحتى في هذه كان يتحرى العدل بين الزوجات، فقد روت زوجته السيدة أم سلمة – وكان تزوجها ثيّباً –: أن رسول الله ﷺ لما تزوج أم سلمة أقام عندها ثلاثاً وقال: «إنه ليس بك على أهلك هوان، إن شئتِ سبّعتُ لكِ، وإن سبّعتُ لكِ سبّعتُ لنسائي»[3].

وكان من تعليمه الرجالَ العدلَ بين الزوجات، أن نفَّرهم من الميل إلى زوجة دون الأخرى فقال: «من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما، جاء يوم القيامة وشقّه مائل»[4].

ومن شدة لطفه مع المرأة ورحمتها والرأفة بها، كان ﷺ يختار الأمور التي لا تروق للمرأة من الرجل، فيوصي الرجل بعدم إتيانها، حتى لا يؤذي إحساس زوجته، فقد قال موجهاً الزوج: «لا تضرب الوجه، ولا تقبّح – أي لا تقل لزوجتك قبّحك الله – ولا تهجر إلا في البيت»[5].

*　　　*　　　*

وأردفت: ولعل من رحمته ﷺ بالمرأة، أنه كان يجنّبها الأعمال الشاقة التي كان يحضّ عليها الرجل.. ومن أهم ما كان يحضّ عليه الرجالَ الجهادُ في سبيل الله. ولمّا

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٦٦٦.

[2] انظر في صحيح مسلم الحديث رقم /٢٦٥٤.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٦٥٠.

[4] مختصر إرواء الغليل للألباني الحديث رقم /٢٠١٧ وقال عنه: صحيح.

[5] مختصر إرواء الغليل للألباني الحديث رقم /٢٠٣٣ وقال عنه: صحيح.

رغبتْ بعض النساء المشاركةَ في الجهاد وحضورَ المعارك الحربية، عرضن رغبتهن بذلك عليه، فكان جوابه الرفض. روت السيدة عائشة زوجته قالت: «استأذنتُ النبي ﷺ في الجهاد فقال: جهادكن الحج»[١].

وروت عنه في حديث آخر قالت: «سأله نساؤه عن الجهاد فقال: نِعمَ الجهاد الحج»[٢].

بل إن السَّفَر يُعَدُّ من الأعمال المرهقة – وبخاصة للمرأة – وبسبب مشاقّ السفر في سالف الأيام، ومخاطر السفر في أيامنا بعدما كثرت وتنوعت أبواب الفساد.. وانتشر مفسدو المرأة والمتاجرون بها في جنبات الأرض.. ورحمة بالمرأة من أن تصيبها مشقة السفر ومخاطره.. علّم ﷺ الناس في مدرسته فقال: «لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم»[٣]. وذو المحرم هذا لا تتمثّل مهمته في المؤانسة فقط، وإنما تتمثل بالدرجة الأولى في المعونة والحماية وردِّ غوائل السفر عنها.. وبهذا ضمن ﷺ للمرأة أن تسافر وهي معززة مكرّمة، وأن تعود من سفرها وهي مصونة حميدة.

* * *

وأردفت: لقد كان ﷺ يحب المرأة، يحبها أماً، ويحبّها بنتاً، ويحبها قريبة، ويحبها زوجة، أي في حالاتها كافة..

لذلك كان يرحمها ويرفق بها ما استطاع، حتى إذا كانت راكبة مركوبها، أمر السائق أن لا يسرع، كي تبقى مستمتعة بالاطمئنان والأمان[٤]. فقد روى أنس بن مالك قال:

---

[١] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٦٦٣.

[٢] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٦٦٤.

[٣] صحيح البخاري الحديث رقم /١٠٢٤.

[٤] كان المركب الأشهَر والأهنأ للمرأة في الماضي هو الهودج المحمول على الجمل، تركب فيه المرأة ويسوق الجملَ سائقه. وكانت قوافل الجمال لا تخلو من حادٍ يحدو الإبل كي تسرع في السير، وكان لرسول الله ﷺ حادٍ اسمه (أنجشة) إذا حدا أسرعت الإبل، وربما إذا زادت سرعتها آذت راكبة الهودج.

كانت أم سُليم مع نساء النبي ﷺ - في سفر - وهن يسوق بهن سوّاق. فقال نبي الله ﷺ: «أي أنجشة، رويداً سوقك بالقوارير - يعني النساء -»[1].

وانطلاقاً من هذه المحبة والرحمة والرأفة بالمرأة، كان ﷺ يرغّب الرجال في أن يكونوا مثله في معاملتهم للنساء، ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[2].

ويحث الأزواج على أن يتناسَوا مساوئ زوجاتهم، ويذكروا محاسنهن، كي تنتفي الكراهية من بينهم وتحل محلها الألفة والمودّة، فيقول: «لا يفْرَك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خُلُقاً رضي منها آخر»[3].

* * *

وهنا قال الأب ستيفانو: حسبي، فلقد بِتُّ أشدُّ على يد المؤرخ الغربي (وليم موير) حيث يقول في كتابه (حياة محمد): «ولقد كان محمد رحمة لجنس النساء الذي كان يعامَل كالأمتعة والأثاث لا غير، في جميع الدنيا»[4].

بل أقول: إن المرأة لن تجد رحيماً بها محرراً لها، مثل محمد، حتى فيما يُستقبل من الزمان.

قلت: كيف هذا؟ ووسائل الإعلام الغربية ما تنفكّ تصدح بحرية المرأة.. وحقوق المرأة.. وما إلى ذلك.

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٢٨٩.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٨٥ وقد ورد هذا الحديث في معرض الكلام عن النساء.

[3] صحيح مسلم الحديث رقم /٢٦٧٢.

[4] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص ٤٦ — ويقول المستشرق الفرنسي (إميل درمنغم) في كتابه (حياة محمد): «إن محمداً رسول الإسلام، قد أوجدت دعوته في جزيرة العرب تقدماً غير قابل للاعتراض، سواء أكان ذلك في دائرة الأسرة، أم في دائرة المجتمع، أم في الناحية الصحية. وإن حظ المرأة قد تحسَّن، وإن الفحش، والزواج المؤقت، والمعاشرة الحرة (الزنى) قد حُظرت. وقد حُرِّم أيضاً إكراه الإماء على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن كما كان متبعاً في ذلك العهد» ويقول: «لقد حظر محمد في قسم الأسرى إبعاد الأطفال عن أمهاتهم».

فتفكر الأب ستيفانو قليلاً ثم قال: أتدري ما هي حرية وحقوق المرأة التي ننادي بها في الغرب؟

قلت: لا.

قال: لو درستَ أوضاع المرأة الغربية اليوم دراسة جديَّة، وتعرفتَ واقعها الحقيقي الذي لا تزيفه ولا تبهرجه وسائل الإعلام، لوجدتَ أن الحق الوحيد الذي نالته المرأة الغربية من الحضارة الغربية اليوم، هو حقها في أن تخلع عنها ثيابها! وتتعرى.. وكلما أظهرت قدراً أكبر من عورتها كلما صفَّقت لها وسائل الإعلام وصاحت: انظروا كم هي المرأة متحررة عندنا! وكم نالت من حقوق..

أما إن هي سترت عورتها، فالويل لها.. ولن تدّخر وسائل الإعلام وُسعاً في اتهامها ونعتها تارة بالرجعية، وتارة بالمتخلفة، وتارة بالمكبوتة، وتارة بمعاداة الرقي والحضارة.. حتى كأن كشف عورة المرأة هو عنوان الرقيِّ والحضارةِ وتحريرِ المرأة في الغربِ!!!

قلت: كيف هذا ووسائل إعلامكم تفاخر دائماً بأن المرأة الغربية وصلت في هذه الأيام إلى أعلى درجات التعلُّم، وإلى أعلى مناصب الدولة، وإلى غير ذلك..

قال: أمّا أنّها وصلت إلى أعلى درجات التعلُّم، فلَئن قدّرتَ أن عدد حاملات درجة الدكتوراه يصل إلى المئات، بل إلى الآلاف إن شئت، فماذا جنت من هذا مئات الملايين من النساء اللواتي لم ينلن تلك الدرجة؟ لقد انضمت هذه المئات أو الآلاف القليلة إلى السيدات الأرستقراطيات القديمات.. وبقيت مئات الملايين من النساء على ما كنَّ عليه من البحث عن القوت بشتى الطرق والأساليب.. فماذا تغيَّر؟

وتابع قائلاً: وأمَّا أنَّ المرأة وصلت إلى أعلى مناصب الدولة! فكم هن اللواتي وصلن؟ إنهن لا يتجاوزن العشرات.. وحتى إن وصل عددهن إلى المئات.. فماذا جنت من هذا مئات الملايين من النساء اللواتي لم يصلن إلى هذه المناصب؟

وتابع قائلاً: ولئن قلتَ لي لقد صار لهن من يمثّلهن في المجالس النيابية – البرلمانات – ويطالب بحقوقهن. لقلت لك: إن بدعة المجالس النيابية ما هي إلا خدعة سياسية جاء بها مَكرُ المتموِّلين.. وكان الغرض منها إلهاء الناس رجالاً ونساءً بأمور الانتخابات وما ينتج عنها.. وإبعادهم عن مزاحمة المتموِّلين على مصادر الثروة.. ولو درستَ حقيقة نُظُم الحكم عند الغربيين، لوجدتها كلها ترتبط بخيوط دقيقة إلى أصابع خفية من وراء الستار.. تسيِّرها وتوجهها كيفما شاءت.. هي أصابع بيوت المال والاقتصاد.. من شركاتِ ومؤسساتِ صناعاتِ الأسلحة، وصناعاتِ البترول، وصناعاتِ الذرّة، إلى غير ذلك.. ولهذا فالدَّور الفاعل في المجالس النيابية، يكون لمن وصلوا إليها عن طريق بيوت الأموال.. أما الآخرون، فلإكمال اللوحة فقط.

قلت: لن أعلّق على كلامك أيها الأب ستيفانو، فرَبُّ الدار أدرى بما فيها.

* * *

### ١٤- رحمته عند إقامة الحدود:

قال الأب ستيفانو: ثم ماذا علَّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ عند إقامة الحدود.

قال: وما الحدود؟

قلت: الحدود هي العقوبات المحددة التي نصت الشريعة الإسلامية على توقيعها على أصحاب الجرائم التي تضرُّ بالمجتمع الإسلامي مثل الزنى والسرقة وشرب الخمر..

قال: هذا أمر يمكن أن يأتيه أي صاحب سلطة فيعفو عن المجرمين؛ إما رحمة بهم أو لغاية في نفسه.

قلت: على رِسْلِك.. إنَّ صاحب السلطة قد يعفو عن مجرم راغب بالعفو، لكنه لا يعفو عن مجرم راغب بالعقوبة.

قال باستغراب: وهل هناك مجرم يرغب بالعقوبة؟!

قلت: أجل، هكذا هم تلاميذ مدرسة محمد..

قال: أفصِح وأوضِح.

قلت: إني محدثك فأصغِ إلي:

روى الصحابي بريدة قال: «جاء ماعز بن مالك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله طهِّرني. فقال: ويحك ارجع فاستغفر الله وتُب إليه. قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهِّرني. فقال رسول الله ﷺ: ويحك ارجع فاستغفر الله وتُب إليه. قال: فرجع غير بعيد ثم جاء فقال: يا رسول الله طهِّرني. فقال النبي ﷺ مثل ذلك.. حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله: فِيمَ أُطَهِّرُك؟ فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: أبه جنون؟ فأُخبر أنه ليس بمجنون. فقال: أَشَرِب خمراً؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر. قال فقال رسول الله ﷺ: أَزنيتَ؟ فقال: نعم. فأمر به فرُجم. فكان الناس فيه فرقتين: قائل يقول لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته. وقائل يقول: ما توبةٌ أفضل من توبة ماعز؛ أنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده ثم قال: اقتلني بالحجارة.

قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلَّم ثم جلس فقال: استغفروا لماعز بن مالك. قال فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال فقال رسول الله ﷺ: لقد تاب توبة لو قُسمت بين أمَّةٍ لوسعتهم.

قال: ثم جاءته امرأة من غامد من الأزد فقالت: يا رسول الله طهرني. فقال: ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه. فقالت: أراك تريد أن تردَّني كما رددتَ ماعز بن مالك. قال: وما ذاك؟ قالت إنها حبلى من الزنى. فقال: آنتِ؟ قالت: نعم. فقال لها: حتى تضعي ما في بطنك.

قال فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت. قال فأتى النبي ﷺ فقال: لقد وضعتْ الغامدية. فقال: إذاً لا نرجمها وندع ولدها صغيراً ليس له من يرضعه. فقام رجل من الأنصار فقال: إليَّ رضاعه يا نبي الله. قال فرجمها»[1].

وأردفت: كيف ترى أيها الأب ستيفانو، أكان رسول الله ﷺ رحيماً عند إقامة الحد؟

قال: إن ما حدثتني به يؤكد لي صحة قولك السالف: إن محمداً كان أرحم بالمسلمين منهم بأنفسهم. لكن هل تكرر مثل هذا؟

قلت: أجل، فقد روى الصحابي أبو هريرة قال: «أتى رسولَ الله ﷺ رجل من الناس وهو في المسجد، فناداه: يا رسول الله إني زنيتُ. فأعرض عنه النبي ﷺ. فتنحَّى لِشِق وجهه الذي أعرض قِبَلَه فقال: يا رسول الله إني زنيت. فأعرض عنه. فجاء لشِقِّ وجه النبي ﷺ الذي أعرض عنه، فلما شهد على نفسه أربع شهادات.. دعاه النبي ﷺ فقال: أبِكَ جنون؟ قال: لا يا رسول الله. فقال: أَحْصَنْتَ – أي تزوجت — قال: نعم يا رسول الله. فقال: اذهبوا به فارجموه»[2].

وأردفت: أيكفي هذا أم أزيدك بما هو أبلغ؟

قال: وهل هناك ما هو أبلغ؟

قلت: أجل، فقد روى الصحابي أنس بن مالك قال: «كنت عند النبي ﷺ فجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني أصبتُ حداً فأقمه علي. قال و لم يسأله عنه. قال: وحضرت الصلاة، فصلى مع النبي ﷺ فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فقال: يا رسول الله إني أَصبتُ حداً فأقم فيَّ كتاب الله. قال: أليس قد صليتَ معنا؟ قال: نعم. قال: فإن الله قد غفر لك ذنبك»[3].

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم/٣٢٠٧ وانظر في مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم/٣٥٦٥ ففيه زيادة.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم/٦٣٢٥ – صحيح مسلم الحديث رقم/٣٢٠٢.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم/٦٣٢٣.

وأردفت: أرأيت كيف نجّا رسول الله ﷺ الرجلَ من العقوبة بعدم سؤاله عن ذنبه الذي جاء ليعترف به، رحمةً به، لَمّا تأكد له صدق ندمه على ما فعل، ولو سأله عن ذنبه، وأَقَرَّ الرجل، لنالته العقوبة وأقيمَ عليه الحدّ.

وهكذا كانت سيرته ﷺ عند إقامة الحدود في غير هذا من الجرائم.

قال الأب ستيفانو: إن مما يثير إعجابي برحمة محمد، كما تحدثني عنها.. أنها لم تكن تظهر مرَّةً وتختفي أخرى، بل هي دائماً ظاهرة متكررة لا تنتهي عند حد. ويظهر لي أن من يدرس سيرة محمد الصحيحة دراسة جادة، يستطيع أن يتناول منها أمثلة الرحمة كيف شاء.

قلت: لأن رحمته ﷺ لم تكن متكلّفة أو مصطنَعة، إنما كانت رحمةً متأصِّلة في نفسه.

وأردفت: وهكذا كانت سيرته ﷺ عند إقامة الحدود في جميع الجرائم الحديَّة الأخرى.. يحاول أن يدرأ توقيع الحد ما استطاع.. على أن يبقى ضمن دائرة ما شرعه الله سبحانه.. بل حتى الجرائم غير الحديّة كان ﷺ لا تفارقه الرحمة في توقيع عقوبتها على مستحقيها.

قال: وما الجرائم غير الحدّيّة؟

قلت: تلك التي لم تنص الشريعة الإسلامية على عقوبة محددة لها، إنما تُرك أمرها إلى الحاكم يقدِّرها بحسب ما يتبدَّى له من الظروف والملابسات المحيطة بالجريمة[1].

قال: ألا بيَّنت لي؟

قلت: كان حاطب بن أبي بلتعة حليفاً لقريش، مقيماً بينهم في مكة، فلما بُعثَ رسول الله ﷺ أسلم حاطب وهاجر إلى المدينة وترك أهله في مكة. فلما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، أجرى تجهيزات الجيش في المدينة بسرِّية تامة حتى يفاجئ قريشاً. وقبل تحرُّك الجيش من المدينة، حدث ما رواه علي بن أبي

[1] انظر (السياسة الشرعية) لابن تيمية ط. دار المعرفة ص٩٥.

طالب قال: «بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب، فخذوه منها. قال: فانطلقنا تعادَى بنا خيلُنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب. فقلنا: لتخرجنَّ الكتاب أو لَنُلقِيَنَّ الثياب. قال: فأخرجته من عقاصها – أي من ضفائرها – فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا به من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ – وفي رواية يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم – فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟! قال: يا رسول الله لا تعجَل علَي، إني كنت امرأً مُلصقاً في قريش، يقول كنت حليفاً و لم أكن من أنفُسها، وكان مَن معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم، أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، و لم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: إنه قد صدقكم – وفي رواية: صَدَق فلا تقولوا له إلا خيراً – فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطَّلع على من شهد بدراً فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم – وفي رواية: فقد وجبت لكم الجنة. قال فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم –»[1].

فقال الأب ستيفانو معلقاً على الحديث: لو جرى هذا مع غير محمد لأُعلن عن حاطب أنه جاسوس يتعامل مع العدو، ولاتُّهم بالخيانة العظمى.. ولأُعدِم من فوره.

قلت: أما رسول الله ﷺ فما كان ليقتل أصحابه، بل كان يعالج أخطاءهم برحمته وحكمته فيكونون بعد الخطأ أصلب إيماناً وأشد حبّاً لله ورسوله.

* * *

## ١٥- رحمته بأهل الأديان الأخرى:

قال الأب ستيفانو: ثم ماذا علّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم/٣٩٣٩ – والحديث رقم/٥٧٨٩.

قلت: لقد علّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بأهل الأديان الأخرى غير الإسلام.

وأول ما يسترعي الانتباه هنا هو تلك الوثيقة التي تناقلتها كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي، ووصفتها بأنها أول وثيقة سياسية صدرت عن النبي ﷺ، في بداية هجرته من مكة إلى المدينة[1]. وهي تنص على معاهدة أبرمها النبي ﷺ بين مجموعة المسلمين من المهاجرين والأنصار، فيما بينهم من جهة، ثم فيما بينهم وبين يهود المدينة من جهة أخرى. فكان فيها مما يخص اليهود البنود التالية:

«١ – إن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا مَن ظَلَمَ وأَثَم، فإنه لا يوتِغ — أي يُهلك – إلا نفسه وأهل بيته.

٢ – وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٣ – وأن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٤ – وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٥ – وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

٦ – وأن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٧ – وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا مَن ظلم وأثم، فإنه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته.

٨ – وأن ليهود بني الشُّطَيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البِرَّ دون الإثم.

٩ – وأن بطانة يهود كأنفسهم.

١٠ – وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وأن بينهم النصح والنصيحة، والبِرَّ دون الإثم.

---

[1] انظر (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله.

١١ – وأن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة، مع البرّ المحض من أهل هذه الصحيفة..»[1].

وأردفت: أترى في هذه المعاهدة حَيفاً على اليهود؟

قال: لا أجد سوى المساواة بين طرفي المعاهدة.

قلت: فإذا ساواك معاهدك بنفسه، أيكون قاسياً أم رحيماً؟

قال: بل يكون رحيماً.

* * *

قلت: ومعاهدة أخرى؛ روت كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي أن رسول الله ﷺ عقدها مع وفد نصارى نجران من أهل اليمن. تقول وثيقة المعاهدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما كتب محمد النبي رسول الله لأهل نجران..

ولنجران وحاشيتها، جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وأنفسِهم، وملَّتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يُغيَّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته،ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم رُبِّيَّة – أي ربا – ولا دمُ جاهلية، ولا يُحشرون – أي إلى الجنديَّة – ولا يُعشرون – أي لا يؤخذ منهم عُشر أموالهم – ولا يطأ أرضهم جيش. ومن سأل حقاً منهم فبينهم النَّصَف – أي العدل – غير ظالمين ولا مظلومين »[2].

وأردفت: أترى في هذه المعاهدة حيفاً على النصارى؟

---

[1] (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله الوثيقة رقم /١ وانظر رأي المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله بهذه الوثيقة – من حيث الصحة والضعف – في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة).

[2] (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله – الوثيقة رقم /٩٤– وتجدر الإشارة إلى أن الحديث الوارد في صحيح البخاري برقم /٤٠٩ «جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله..». والحديث الوارد في صحيح مسلم برقم /٤٤٤٤: «جاء أهل نجران إلى رسول الله..» ليس فيهما التفاصيل الواردة في هذه الوثيقة – وانظر رأي المحدث الشيخ ناصر الدين الألباني بها – من حيث الصحة والضعف – في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة).

قال: لا أجد فيها سوى العدل والرأفة و الرحمة - غير ظالمين ولا مظلومين -.

* * *

قلت: ومعاهدة أخرى؛ روت كتب السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي أنها عُقدت بين النبي ﷺ وبين أسقف نجران، تقول وثيقة المعاهدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد النبي إلى الأسقف أبي الحارث بن علقمة وأساقفة نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم: إن لهم ما تحت أيديهم مِن قليل أو كثير، مِن بِيَعهم وصلواتهم ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يُغَيّر أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغيّر حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه، على ذلك جوار الله ورسوله أبداً ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم، غير مُثقلين بظلم ولا ظالمين »[1].

* * *

وأردفت: أتجد في هذه الوثائق قسوة على أهل الأديان الأخرى أم رحمة بهم؟

قال: لا أجد سوى العدالة والرحمة.

قلت: بل إن كتب السيرة النبوية تروي أكثر من هذا عن وفد نصارى نجران.

قال: ماذا تروي؟

قلت: تقول أقدمُ سيرةٍ نبوية موثوقة وصلتنا:

«قَدِم وفد نصارى نجران، ستون راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم، منهم ثلاثة نفرٍ إليهم يؤول أمرهم:

- العاقب: أمير القوم وذو رأيهم وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلا عن رأيه، واسمه عبد المسيح.

- والسيد: ثِمَالُهُم القائم بشؤونهم، وصاحب رحلهم ومجتمعهم، واسمه الأيهم.

---

[1] (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة) لمحمد حميد الله - الوثيقة رقم /٩٥ وحكم هذه الوثيقة كسابقتها، والله أعلم.

- وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل: أسقفهم وحبرهم وإمامهم وصاحب مدراسهم...

فلما قدموا على رسول الله ﷺ، دخلوا عليه مسجده حين صلى العصر.. يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله يصلّون. فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فصلوا إلى المشرق»[1].

وأردفت: أين صلى وفد نصارى نجران، أيها الأب ستيفانو؟

قال: داخل مسجد محمد.

قلت: هل كانوا على دينه؟

قال: لا.

قلت: في أي قرنٍ من الزمان كان هذا؟

قال: في القرن السابع المسيحي.

قلت: وأظنك تعلم أنه في نهاية القرن العشرين المسيحي، رفض قساوسة دير (سانت كاترين) بسيناء - وهم من النصارى الروم الأرثوذكس - رفضوا أن يصلي بابا الفاتيكان، الحَبر الأعظم للكاثوليكية (يوحنا بولس الثاني) داخل الدير، عند زيارته له في فبراير سنة /٢٠٠٠م/ لأنه في نظرهم غير مؤمن! حسب مقاييسهم للإيمان.[2]

وأردفت: أكان رسول الله ﷺ قاسياً مع أهل الأديان الأخرى أم كان رحيماً بهم؟

فقال: سَلَف أن قلت لك إنني لا أقارن محمداً بغير الأنبياء.

---

[1] (السيرة النبوية لابن هشام ص ٤٨٥-٤٨٧ ط.دار ابن كثير - وفي (دلائل النبوة) للبيهقي: «فقاموا يصلون في مسجد رسول الله، فأراد الناس منعهم. فقال رسول الله ﷺ: دعوهم. فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم» ٣٨٢/٥.

[2] انظر كتاب (الإسلام والآخر) د.محمد عمارة ص ٧.

وأردف: لقد صدق المستشرق توماس أرنولد عندما قال في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): «لقد عامل المسلمون المسيحيين العرب بتسامح عظيم منذ القرن الأول للهجرة، واستمر هذا التسامح في القرون المتعاقبة، ونستطيع بحق أن نحكم أن القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما اعتنقته عن اختيار وإرادة حرة. وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا الحاضر بين جماعات مسلمة، لشاهد على هذا التسامح»[1].

قلت: ما أروع شهادة الحق!

* * *

وأردفت: ألا أسألك؟

قال: سَلْ ما شئت.

قلت: إذا كان جماعة من النصارى أو اليهود جالسين في مكان ما.. ومرَّت بهم جنازة مسلم، فماذا يفعلون.

فأطرق مَلِيًّاً ثم قال: أعفِنِي من التصريح.

قلت: أرضى منك بالتلميح.

فأطرق من جديد ثم قال: لعلهم لا يأبهون لها.

قلت: لكنَّ رسول الله ﷺ كان يأبه للجنازة من أي دين كان صاحبها. فقد روى جابر بن عبد الله قال: «مرَّ بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا به. فقلنا: يا رسول الله إنها جنازة يهودي. قال: إذا رأيتم الجنازة فقوموا»[2].

وروي أنه مرَّت به ﷺ جنازة فقام لها واقفاً، فقيل له: «يا رسول الله! إنها جنازة يهودي. فقال: أليست نفساً»[3].

---

[1] ص٧٣.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم/١٢٢٨.

[3] غاية المرام للألباني الحديث رقم /٤٧٥/ وقال عنه: صحيح أخرجه البخاري وكذا مسلم والنسائي. ثم قال الألباني: «فائدة: هذا الحديث منسوخ بأحاديث صحيحة صريحة في النسخ ذكرتُ بعضها في كتابي

وروي عن الصحابيين سهل بن حُنيف وقيس بن سعد: أنهما كانا قاعدَين بالقادسية، فمرُّوا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: «إنها جنازةٌ من أهل الأرض، أي من أهل الذِّمَّة. فقالا: إن النبي ﷺ مرَّت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: أليست نفساً»[1].

وأردفت: كيف ترى المعلم والتلاميذ في مدرسة محمد أيها الأب ستيفانو؟.

قال: نِعْمَ المعلِّمُ والتلاميذُ واللهِ.

* * *

قلت: و لم يكن تسامح محمد ﷺ مع أهل الأديان الأخرى على المستوى العام فقط، بل كان على المستوى الشخصي أيضاً، فقد روى الصحابي جابر بن عبد الله: «أن يهوديةً من أهل خيبر، سمّت شاة مَصلية – مشوية – أهدتها لرسول الله ﷺ، فأخذ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه. فقال رسول الله ﷺ: ارفعوا أيديكم. وأرسل إلى اليهودية فدعاها فقال: سممتِ هذه الشاة؟ فقالت: من أخبرك؟ قال: أخبرتني هذه في يدي – للذراع – قالت: نعم. قال: فما أردتِ إلى ذلك؟ قالت: قلت إن كان نبياً فلن يضرّه، وإن لم يكن استرحنا منه. فعفا عنها رسول الله و لم يعاقبها»[2].

وأردفت: وهكذا كان دأب النبي ﷺ، يعلّم المسلمين في مدرسته الصفح عن أهل الأديان الأخرى، حتى لو صدر عنهم إيذاء للمسلمين، عملاً بالآية القرآنية التي تقول: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ﴾[3]. قال

---

(أحكام الجنائز وبدعها». ا.هـ. لكنَّ حديث البخاري – التالي في النص – يفيد أن بعض الصحابة كانو يعملون به ويحدِّثون به بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم. والله أعلم.

[1] صحيح البخاري الحديث رقم/١٢٢٩.

[2] مشكاة المصابيح بتحقيق الألباني الحديث رقم /٥٩٣١ وقال عنه: صحيح.

[3] البقرة /١٠٩.

الصحابي أسامة بن زيد: «كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله، ويصبرون على الأذى، ثم قرأ هذه الآية»[1].

* * *

قال الأب ستيفانو: لا أكتمك أنني قرأت في كثير من كتب التاريخ عن أوضاع غير المسلمين في الدولة الإسلامية إبان مجدها وحضارتها، فوجدت اليهود والنصارى فيها يُعامَلون معاملةً تجعلهم يفضلون العيش في كنف المسلمين، على العيش في كنف أبناء دينهم![2] ويُعطَون من الحقوق ما يصلون به إلى المراتب العالية في الدولة الإسلامية. ولو استطعنا نحن الغربيين اليوم أن نعامل أهل الأديان الأخرى مثل تلك المعاملة، لاستطعنا أن نجد من الترحيب بنا في أوساط الأديان الأخرى ما يناقض واقعنا اليوم، من كراهيتهم لنا بسبب قسوتنا عليهم، وبخاصة على المسلمين الذين أسرفنا في التضييق عليهم هذه الأيام.

وأردف قائلاً: ولقد بتُّ الآن على يقين من أن كل ما قرأتُه في كتب المنصفين من الغربيين عن رحمة محمد وتلاميذ مدرسته بأصحاب الأديان الأخرى، كان صدقاً وحقاً.

قلت: هلاَّ حدثتني بنُبَذٍ من أقوالهم في هذا؟

قال: أجل أحدثك، فالحقُّ أحقُّ أن يُنشر ويُذاع بين الناس:

---

[1] (فقه السيرة) لمحمد الغزالي ٢٣٨/١ وقد صححه الألباني في تخريجه لأحاديث هذا الكتاب.

[2] يقول المستشرق (توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): «ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، وعسكر أبو عبيدة في بلدة فحل، كتب الأهالي النصارى في تلك البلاد إلى العرب الفاتحين يقولون: يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، وأنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكَفُّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غلبونا على أمرنا» إلى أن قال: «وغلَّق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق والروم وتعسفهم». ص٧٣.

- يقول المستشرق الفرنسي (غوستاف لوبون) في كتابه (حضارة العرب): «إن محمداً رغم مايُشاع عنه مِن قِبَل خصومه ومخالفيه في أوروبا، قد أظهر الحِلم الوافر، والرحابة الفسيحة إزاء أهل الذمة - اليهود والنصارى - جميعاً»[1].

- ويقول أيضاً: «والإسلام من أعظم الديانات تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والإحسان والتسامح»[2].

- ويقول (روبرتسون) في كتابه (تاريخ شارلكان): «إن أتباع محمد وحدهم هم الذين جمعوا بين التسامح والدعوة إلى الإسلام»[3].

- ويقول الفيلسوف الألماني الشهير (غوته) في كتابه (أخلاق المسلمين وعاداتهم): «ولا شك أن المتسامح الأكبر أمام اعتداءات أصحاب الديانات الأخرى،وأمام إرهاصات وتخريفات اللادينيين، التسامح بمعناه الإلهي، غرسه رسول الإسلام في نفوس المسلمين،فقد كان محمد المتسامح الأكبر»[4].

- ويقول (جيمس بيرك) في كتابه (عندما تغير العالم): «وقد تميز المجتمع الإسلامي الثري الحضاري ذو الثقافة الرفيعة، بالتسامح مع العقائد الأخرى، حيث عاش في ظل حكم الخلفاء المسلمين آلافُ اليهود والمسيحيين في سلام وانسجام كامل»[5].

- ويقول المؤرخ (ويل ديورانت) في كتابه (قصة الحضارة): «وعاشت الأقليات اليهودية آمنة في القسطنطينية وسالونيك وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية ومصر وشمال أفريقية وإسبانيا تحت حكم العرب»[6].

---

[1] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص ٥٧.

[2] (حضارة العرب) لغوستاف لوبون ص ١٢٦.

[3] عن كتاب (حياة محمد) لإميل درمنغم ص٣٦٢ حاشية - تعريب عادل زعيتر - ط٢ دار العلم للملايين.

[4] عن كتاب (محمد في الآداب العالمية المنصفة) لمحمد عثمان ص ٢٠.

[5] ص٥٠.

[6] ص٨٩١٤.

وأضاف الأب ستيفانو قائلاً: وأنا أُدرك أن التسامح مع الآخرين هو عين الرحمة بهم.

*　　*　　*

**١٦- رحمته بأعدائه:**

وأردف الأب ستيفانو: ثم ماذا علّم محمد الناسَ في مدرسته من أبواب الرحمة؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالأعداء. فقد بدأت عداوات الناس له بالظهور، منذ أعلن رسالته في قومه ودعاهم إلى الإسلام، فآمن له القليل منهم بادئ الأمر، ورفضه الأكثرون والسادة.. وصار هؤلاء يكيدون له ويعذبون من آمن به ليفتنوهم عن دينهم، ولقي منهم ما لقي.. حتى اضطر لأن يأمر من آمنوا به، بالهجرة من مكة فراراً بدينهم. فهاجروا إلى الحبشة، الهجرة الأولى والهجرة الثانية.. ثم هاجر هو ومن بقي معه، من مكة إلى المدينة.. كل هذا للعداوة اللدود التي واجهه بها المشركون[1].

وهكذا تكاثر أعداء رسول الله ﷺ.. لا لشيء، سوى أنه كان يدعوهم إلى توحيد وعبادة الله سبحانه! وصار هؤلاء الأعداء يكيدون له ويحاولون قتله إن استطاعوا!! حتى أن بعض أصحابه صاروا يتناوبون حراسته أول هجرته، خوفاً عليه من تدبير أعدائه المكائدَ له.. إلى أن أمرهم بعدم حراسته! قالت زوجته السيدة عائشة: «كان ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[2] فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة فقال لهم: يا أيها الناس، انصرفوا فقد عصمني الله»[3].

*　　*　　*

---

[1] انظر في كتب السيرة النبوية صوراً مما أنزله المشركون بالمسلمين من العذاب.

[2] المائدة /٦٧.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٢٤٨٩.

وأردفتُ: أتدري أيها الأب ستيفانو كيف كان ردُّ رسول الله ﷺ على العداوات التي أحاطت به؟.

قال: كيف كان ردُّه؟.

قلت: بعد كل ما أنزله المشركون بأتباعه المؤمنين من عذاب.. قال له بعض أصحابه: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «إني لم أُبعث لعَّاناً، وإنما بعثت رحمة»[1].

وكرَّرتُ: «إنما بعثت رحمة».

فقال بإعجاب: لم يرضَ أن يلعن أعداءه! هكذا تكون الرحمة!

قلت: بل أكثر من هذا.

قال: وما ذاك؟.

قلت: عندما اشتد رفض المشركين له، وأمعنوا في إيذائه.. جاءه الوحي يعرض عليه الانتقام له منهم وإهلاكهم. فكان جوابه: «بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[2].

فبادر الأب ستيفانو مكرراً إعجابه قائلاً: أوَّاهٌ[3] حليم! لقد تعدَّت رحمته أعداءَه إلى ذريَّاتهم!

قلت: أجل، لقد رحمهم، إن لم يكن لأجلهم فلأجل ذريَّاتهم!

وأردفت: بل هو كان يدعو لهم ويقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[4].

فقال الأب ستيفانو مردداً بتواضع وهدوء: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»!! ألا ما أجمل هذا التعبير الصادق عن مكنونات النفس الرحيمة!.

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني – الحديث رقم /٣٩٤٥.

[2] صحيح البخاري الحديث رقم /٢٩٩٢ – صحيح مسلم الحديث رقم /٣٣٥٢.

[3] الأوَّاه: الرحيم الرقيق قلبه.

[4] انظر مناقشة الحديث برواياته المختلفة وتأويلاته في (فتح الباري) لابن حجر الحديث رقم/٣٢١٨.

قلت: ولقيه ذات مرة في مكة – قبل الهجرة – سيد قبيلة (دَوس)، فدعاه الرسول ﷺ إلى الإيمان بالله وحده، فآمن الرجل وعاد إلى قبيلته يدعوهم إلى الإيمان، فرفضوا، فعاد إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله إن دَوساً عصتْ وأبتْ فادعُ الله عليها. فرفع رسول الله ﷺ يديه ليدعو. فظن الناس أنه يدعو عليهم. فقال: «اللهم اهدِ دَوساً وأْتِ بهم!»[1].

فقال الأب ستيفانو بإعجاب: سيدهم استاء منهم، ومحمد رحمهم! إنها النبوَّة!.

قلت: وحدَّث عنه الصحابي جابر بن عبد الله قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة – أي حَر الظهيرة – وهو في واد كثير العضاه – نوع من الشجر – فنزل تحت شجرة واستظل بها، وعلَّق سيفه. فتفرق الناس في الشجر يستظلون. وبينا نحن كذلك، إذ دعانا رسول الله ﷺ، فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه.فقال: إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط صلتاً. قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله. فشامه[2] ثم قعد. فهذا هو. قال: و لم يعاقبه»[3].

فقال الأب ستيفانو معلِّقاً: لو حدث مثل هذا مع زعيم من زعماء الدنيا، لعقد لهذا الأعرابي محكمة عسكرية على وجه السرعة، فأصدرت عليه الحكم بالإعدام فوراً، هذا إن لم يقتله بلا محاكمة!.

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٥٩١٨ – متفق عليه – أما حديث «اللهم اهدِ ثقيفاً وأت بهم» فقد ضعفه الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة).

[2] شام السيف: أدخله في غِمده.

[3] صحيح البخاري الحديث رقم /٣٨٢٤ – وفي رواية مشكاة المصابيح الحديث رقم /٥٣٠٥ «قلت: الله، فسقط السيف من يد الأعرابي، فأخذه رسول الله ﷺ فقال: ومن يمنعك مني؟ فقال الأعرابي: كن خير آخذ. فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قال:لا، ولكني أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلَّى سبيله. فأتى الأعرابي أصحابه فقال: جئتكم من عند خير الناس».

قلت: ولما توفي عدوُّه الداخلي، زعيم المنافقين (عبد الله بن أُبَيّ بن سلول) «جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه إياه. ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ليصلي عليه، فقام عمر بن الخطاب فأخذ بثوب رسول الله فقال: يارسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيَّرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ﴾[1]، وسأزيد على سبعين. قال عمر: إنه منافق. فصلى عليه رسول الله ﷺ»[2].

قال الأب ستيفانو: إنها لرحمة حكيمة، تؤلف القلوب، وتصفِّي النفوس.

قلت: أجل، لقد كان يرحم أعداءه رحمة ذات جدوى، يعود نفعها عليهم.. فقد روى صاحبه أبو هريرة قال: «بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يُقال له (ثُمامة بن أثال) – هو سيد أهل اليمامة – فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندكَ يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تُنعِم تُنعِم على شاكر، وإن كنتَ تريد المال فسل منه ماشئت.

فتركه حتى كان الغد، ثم قال له: ما عندكَ يا ثمامة؟ فقال: ما قلتُ لك: إن تُنعِم تُنعِم على شاكر.

فتركه حتى كان بعد الغد. فقال له: ما عندكَ يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلتُ لك. فقال: أطلقوا ثمامة.

فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي. والله ما كان من دين

---

[1] التوبة /٨٠.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٤٤١٣.

أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي. والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشَّره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: صَبَوتَ؟- أي غيَّرتَ دينك - قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ »[1].

قال الأب ستيفانو: إن هذا الخبر أيضاً، ليؤكد لي أن محمداً لم يكن فقط رحيماً، بل كان عاقلاً حكيماً رحيماً.

قلت: هو ما تقول، لكن إن أردت أن تتثبت أكثر، من صحة حكمك هذا، فتعال معي نتعرف على رحمة محمد بأعدائه عندما وصلت الذروةَ يوم فتح مكة، إذ تلاقى رسول الله ﷺ وجهاً لوجه بألدِّ أعدائه خصومةً، وهم مشركو قبيلة قريش، الذين أنزلوا به وبأصحابه من ألوان الأذى والتعذيب ما سبق أن أشرتُ إليه..

لم يلقَهم ﷺ يوم ذاك لقاء الند للند، بل لقيهم لقاء الغالب للمغلوب.. لقاء المنتصر الذي تمكن من عدوِّه حتى ألقى عدوُّه السلاح مستسلماً.. وكان من حق رسول الله ﷺ يومها أن ينتقم.. وكان بعض أصحابه المقربين منه وعلى رأسهم عمر بن الخطاب يتوقعون الانتقام، لأنهم كانوا يعرفون الجرائم التي ارتكبها هذا العدو بحق محمد ﷺ والمسلمين معه.. وانتقم رسول الله! أتدري كيف كان انتقامه؟.

---

[1] صحيح البخاري الحديث رقم /٤٠٢٤ - صحيح مسلم الحديث رقم /٣٣١٠ - قال الألباني في (إرواء الغليل ٤٢/٥): «وفي رواية زيادة تقول: وانصرف إلى بلده، ومنع الحَمل إلى مكة حتى جهدَت قريش. فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ» قال الألباني: وإسناد هذه الزيادة حسن.

وقد وردت هذه الزيادة في (سيرة ابن هشام) ص ١١٢١ ط. دار ابن كثير، مع اختلاف في بعض الألفاظ - هذا وقد كان ثمامة بن أثال، وهوذة بن علي الحنفيان، سيدَي أهل اليمامة من بني حنيفة، وقد أرسل إليهما رسول الله ﷺ عندما أرسل رسله بكتبه إلى الملوك والأمراء بعد صلح الحديبية، فلم يستجيبا لدعوته (انظر أسد الغابة ٧٢/١) وصار الوضع بين المسلمين وبني حنيفة - حالة حرب - إلى أن أسلم ثمامة بن أثال (انظر الكامل في التاريخ ٣١٨/١ - والمختصر في أخبار البشر ٥/١) أما هوذة بن علي فلم يُسلِم.

فقال بتلهف: كيف كان ذلك؟.

قلت: كان انتقامه من ألدِّ أعدائه خصومةً له، بأن عفا عنهم جميعاً!

قال: عفا عنهم! كيف! وكبار أصحابه يتوقعون الانتقام؟.

قلت: سأحدثك حديث فتح مكة، وكيف علَّم ﷺ تلاميذه يومذاك، الرحمة بالأعداء.

قال: لكن من النصوص الأصلية.

قلت: لك ما تريد. حدَّث ابن عباس قال: «خرج رسول الله ﷺ - لفتح مكة - لعشرٍ مضين من رمضان.. في عشرة آلاف من المسلمين، من مُزَيْنَة وسُليم، وفي كل القبائل عَدد وإسلام. وأوعبَ مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار - أي خرجوا جميعاً - فلم يتخلف منهم أحد.

فلما نزل ﷺ (مرَّ الظهران)[1] وقد عميت الأخبار عن قريش، فلم يأتهم عن رسول الله ﷺ خبر، ولا يدرون ما هو فاعل؟! خرج في تلك الليلة أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء[2]، يتحسسون وينظرون، هل يجدون خبراً أو يسمعون به؟

وقد كان العباس بن عبد المطلب أتى رسول الله ﷺ ببعض الطريق. وقد كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة قد لقيا رسول الله ﷺ[3] أيضاً فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلَّمته أم سلمة فيهما، فقالت: يا رسول الله،ابن عمك وابن عمتك وصهرك. قال: لا حاجة لي بهما، أما ابن عمي فهتك عرضي - إشارة إلى هجاء أبي سفيان هذا له في شعره — وأما ابن عمتي وصهري، فهو الذي قال لي بمكة ما قال - إشارة إلى اشتراك عبد الله بن أبي أمية هذا

[1] الظَّهران: وادٍ قرب مكة، وعنده قرية يقال لها: مَرّ، تضاف إلى هذا الوادي فيقال: مر الظهران. — انظر معجم البلدان مادة: الظهران.

[2] هم من زعماء قريش.

[3] أبو سفيان بن الحارث: هو ابن عمه، وعبد الله بن أبي أمية: هو أخو زوجته أم سلمة.

في مخاصمة قريش له واتهامها إياه بمختلف الاتهامات – فلما أُخرج إليهما بذلك، ومع أبي سفيان بُنَيٌّ له، فقال: والله ليأذننَّ لي أو لآخذنَّ بيد ابني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ رقَّ لهما، ثم أذن لهما، فدخلا وأسلما[1].

فلما نـــزل رسول الله ﷺ (مَرَّ الظهران) قال العباس: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله عنوةً قبل أن يستأمنوه،إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. قال: فجلستُ على بغلة رسول الله البيضاء، فخرجتُ عليها حتى جئتُ الآراك فقلتُ: لعلّي ألقـــى بعض الحطَّابة، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة يأتي مكة ليخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. قال: فوالله إني لأســـير عليهـــا وألتمس ما خرجت له،إذ سمعت كلام أبي سفيان وبُديل بن ورقاء، وهما يتراجعـــان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كاليوم قط نيراناً ولا عسكراً. قال: يقول بُديل:هذه والله نيران خزاعة حمشتها – أحرقتها – الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خزاعـــة والله أذل وألأم من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة! فعرف صوتي فقال: أبو الفضل؟ فقلت:نعم. قال: مالك فداك أبي وأمـــي؟! فقلـــت: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله! قـــال: فمـــا الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب معـــي هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ أستأمنه لك. قال: فركب خلفـــي، ورجـــع صاحباه، فحرّكتُ به، كلما مررتُ بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله قالوا: عمُّ رسول الله على بغلته، حتى مررتُ بنار عمر بن الخطـــاب، فقال: من هذا؟ وقام إلي. فلما رأى أبا سفيان على عجز البغلة قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحـــو رســـول الله

[1] هناك رواية أخرى لإسلام أبي سفيان بن الحارث خرّجها الألباني في (فقه السيرة) للغزالي وأوصـــلها إلى درجة الحديث الحسن، فانظرها هناك.

ﷺ، وركضتُ البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجلَ البطيء، فاقتحمت عن البغلة، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، ودخل عمر، فقال: يا رسول الله! هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه. قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته. ثم جلستُ إلى رسول الله صلى الله عليه فأخذت برأسه فقلت: لا والله، لا يناجيه الليلة رجل دوني. فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، أما والله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ هذا، ولكنك عرفت أنه رجل من رجال بني عبد مناف. قال: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمتَ كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ: اذهب به إلى رَحلِك يا عباس فإذا أصبح فائتني به. فذهبت به إلى رحلي فبات عندي، فلما أصبح غدوتُ به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟. قال: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحلمك وأوصلك! والله لقد ظننتُ أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً. قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟! قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! هذه — والله – كان في نفسي منها شيء حتى الآن. قال العباس: ويحك يا أبا سفيان! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن يُضرب عنقُك. قال: فشهد بشهادة الحق وأسلم. قلت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر، فاجعل له شيئاً. قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمِن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن.

فلما ذهب لينصرف، قال رسول الله ﷺ: يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.

قال: فخرجت به حتى حبسته حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه. قال: ومرت به القبائل على راياها، كلما مرت قبيلة قال: من هؤلاء؟ فأقول: (سُليم)،

فيقول: مالي ولــ (سُليم)؟ قال: ثم تمر القبيلة، قال: من هؤلاء؟ فــأقول: (مُزَينــة)، فيقول: مالي ولــ (مزينة)؟ حتى نفذت القبائل، لا تمر قبيلة إلا قال من هؤلاء؟ فأقول: بنو فلان، فيقول: مالي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء فيهــا المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله! من هؤلاء يا عباس؟ قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار. قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك بن أخيك الغداة عظيماً. قلت: يــا أبــا سفيان، إنها النبوة. قال: فنعم إذاً. قلت: النجاء إلى قومك.

قال: فخرج حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن. فقامت إليه امرأته هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الدَّسِم الأحمش[1] قُبِّح من طليعة قوم. قــال: ويحكم لا تغرَّنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاء ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. قالوا: ويلك وما تغني دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمِــن. ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم، وإلى المسجد»[2].

فقال الأب ستيفانو: لن أجد غرابةً بعد اليوم، إذا قرأتُ عبارةً تقول: «لم يعرف التاريخ فاتحاً أرحم من تلاميذ مدرسة محمد»، لأن من يُعلِّم في مدرسته مثــل هــذا الدرس يوم الفتح.. ويحوّل برحمته، يومَ هلاك أعدائه إلى يوم طمأنينة لهم، يأمنون فيه داخل دورهم!! لن ينالَ الشُّعوبَ من تلاميذه الفاتحين، سوى الرأفة والرحمة والخلــق النبيل.

* * *

---

[1] الدسم: الأسود – الأحمش: القليل اللحم أي الأسود الدنيء – ذمّاً له.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٣٣٤١ – هذا الحديث لمّ شمله الألباني من أحاديث صحيحة في البخاري ومسلم وغيرهما.. أما حديث «اذهبوا فأنتم الطلقاء» المشهور في موقفه ﷺ من قريش يوم فــتح مكة، فقد ضعّفه الألباني في كتابه (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة).

قلت: ولقد بلغ من رحمته ﷺ بأعدائه أنه كان يسعى لتفادي القسوة عليهم قبل وقوعها.

قال: وكيف هذا؟

قلت: لقد كان ﷺ يوصي الجيش قبل أن يبعثه في مهمة قتالية، بوصايا تمنعهم من قتل غير المقاتلين ممن هم في صف العدو، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[1]. فقد روى بعض أصحابه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيشٍ أو سريةٍ؛ أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: « اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليداً طفلاً – وفي رواية: وليداً طفلاً ولا امرأة –»[2].

قال الأب ستيفانو: ألا ما أرحم محمداً بأعدائه! ولا أكتمك، أننا نحن الغربيين لو وقفنا من أعدائنا موقف محمد من أعدائه، لاستطعنا تجنّب حروب كثيرة.. لم يكن لها من مبرر سوى الكِبْر والعجرفة والقسوة والطمع.

* * *

وأردف قائلاً: ولئن غمط الساسة الأوربيون، والمنتفعون من حولهم.. محمداً فضلَ رحمته بأعدائه، فلقد أنصفَتْه النخبة من أصحاب العقول المتنورة من الباحثين الغربيين.

---

[1] البقرة /١٩٠.

[2] صحيح مسلم الحديث رقم /٣٢٦١ – وفي السنن الكبرى للبيهقي ٩٠/٩ عن أنس بن مالك «لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً ولاصغيراً ولا امرأة».

ولم ينسَ تلاميذه وأصحابه ﷺ وصاته بعد وفاته. فقد روى البيهقي في السنن الكبرى، أن أبا بكر الصديق جهز جيشاً إلى الشام، وأوصى قائد الجيش قائلاً: «لا تقتلوا صبياً ولا امرأة ولا شيخاً كبيراً ولا مريضاً ولا راهباً، ولا تقطعوا مثمراً، ولا تخربوا عامراً، ولا تذبحوا بعيراً ولا بقرة إلا لمأكل، ولا تقعروا نخلاً ولا تحرقوه» ٩٠/٩.

قلت: كيف هذا؟

قال: يقول المستشرق الفرنسي (إميل درمنغم) في كتابه (حياة محمد): «لقد برهن محمد في انتصاره النهائي على عظمة نفسية قلَّ أن يوجد مثيل لها في التاريخ، إذ أمر جنوده أن يعفوا عن الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء، وحذرهم من أن يهدموا البيوت، أو يسلبوا التجار، أو يقطعوا الأشجار المثمرة. وأمرهم أن لا يجردوا السيوف إلا في حالة الضرورة القاهرة»[1].

ويقول أيضاً في كتابه السالف: «إن محمداً رسول الإسلام، لم يكن شخصياً إلا رجلاً أُمياً خِلواً من الثقافة تقريباً، كجميع أبناء جلدته في عصره، ولكنه كان يعلم أن الإله رحيم رحمة لا حدّ لها، فأجهد نفسه في أن يعلو على الطبيعة البشرية وأن يقهر في نفسه الميول الانتقامية»[2].

ويقول الباحث والكاتب الغربي (لين بول): «إن كثيراً من كتّاب التّراجم والسِّير الأوربيين، الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد نبي الإسلام، لم يتعففوا عن أن يشوِّهوا هذه السيرة، وذلك بما أدخلوه فيها من افتراءات وادعاءات، كاتهامهم له بالقسوة، فإن هذه التهمة غير جديرة بالاعتبار كسائر الاتهامات. لأننا لو رجعنا إلى التاريخ وحكّمناه في هذه المسألة، لتبيّن لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد، وذلك بدليل معاملته للأسرى بعد غزوة بدر، وتسامحه مع أعدائه، وصبره على أذاهم، وعطفه على الأطفال والمرضى، وحقنه للدماء، وعفوه عن أولئك الذين قضَوا في محاربته ثمانية عشر عاماً، وأظهروا له فيها صنوف العداء، وأذاقوه من خلالها كل أنواع الجور والاضطهاد والظلم»[3].

ويقول المستشرق الألماني (برتلي سانت هيلر) في كتابه (الشرقيون وعقائدهم): «كان النبي داعياً إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفاً ورحيماً حتى مع

---

[1] عن كتاب (محمد في نظر فلاسفة الغرب) لمحمد فهمي عبد الوهاب ص ٣٤.

[2] المرجع السابق ص ٣٣.

[3] المرجع السابق ص ٣٨.

أعدائه، وإن في شخصيته صفتين هما من أجلّ الصفات التي تحملها النفس البشرية، هما العدالة والرحمة».

* * *

### ١٧- رحمته بالعقول:

قلت: لأختمنَّ لك بباب من أبواب الرحمة لعله لا يخطر لك على بال.

قال: وما ذاك؟

قلت: لقد علَّم رسول الله ﷺ الناس في مدرسته الرحمةَ بالعقول.

فقال متعجباً: وهل تُرحَم العقول؟!

قلت: مَنْ تعمُّ رحمته الجسد، فلا بدَّ أن تطال العقل.

قال: وكيف تكون الرحمة بالعقول؟.

قلت: إن أنت عوَّدتَ عقلكَ ألاَّ يقبل إلا الحقيقة، فقد رحمتَه. وإن أنت عوّدته أن يقبل الأباطيل والخرافات، فقد قسوتَ عليه وظلمتَه.

قال: صدقتَ والله، فكيف كانت رحمة محمد بالعقل؟.

قلت: لقد عوَّد ﷺ الناس من حوله أن لا يحدِّثهم إلا بالصدق، والصِّدقُ أمُّ الحقائق، كما أن الكذب أمّ الأباطيل والخرافات. وقد كان ﷺ يعلّمهم دائماً أنه بشرٌ مثلهم، لا يزيد عليهم إلا في الوحي والنبوة، تماماً كما تقول الآية القرآنية مخاطبة إياه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[١].

قال: أجل، لكن أين رحمته بالعقل؟.

قلت: روى الصحابي جابر بن عبد الله قال: انكسفتْ الشمس في عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم ابن رسول الله، فقال الناس: إنما انكسفتْ لموت إبراهيم – تعظيماً له، وكان هذا من أباطيل وخرافات الجاهلية – فقام النبي ﷺ فصلى بالناس ستَّ ركعات.. ثم وقف بالناس خطيباً فقال: «أيها الناس، إنما الشمس والقمر آيتان

---

[١] فصلت /٦ – الكهف /١١٠.

من آيات الله، وإنهما لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته. فإذا رأيتم شيئاً من ذلك فصلّوا حتى تنجلي»[1].

قال: صدقتَ، ولو لم يكن محمد نبياً صادقاً، لاستغلّ هذه الخرافة في تضليل الناس، وإيهامهم بما لا يقبله العقل السليم، لتدعيم مركزه بينهم.

قلت: ومِن رحمته ﷺ بالعقول؛ أنه نهى المسلمين عن مقارفة أمورٍ تهبط بالعقل عن مستوى الإدراك الصحيح، كانت العرب تتعاطاها مثل: الطِّيَرة (التشاؤم) – والسحر – والكهانة (التنبؤ بالغيب)[2].

قال: لقد أذكرتَني الآن قول الشاعر الفرنسي (لامارتين) في قصيدته (مَنْ أعظم منك يا محمد؟) ممتدحاً نبذه للخرافة: «لا أحد يستطيع أبداً أن يتطلع، عن قصد أو عن غير قصد، إلى بلوغ ما هو أسمى من ذلك الهدف، إنه هدف يتعدى الطاقة البشرية، ألا وهو: تقويض الخرافات التي تجعل حجاباً بين الخالق والمخلوق، وإعادة صلة القُرْبِ المتبادل بين العبد وربه، ورد الاعتبار إلى النظرة العقلية لمقام الألوهية المقدس، وسط عالَمِ فوضى الآلهة المشوهة التي اختلقتها أيدي ملة الإشراك»[3].

* * *

## ١٨– رحمته بالحيوان:

وأردف الأب ستيفانو قائلاً: هل بقي باب من أبواب الرحمة لم يعلِّمه محمد الناسَ في مدرسته؟.

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم /١٥٠٨ – وله روايات متعددة في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث – وهو متفق عليه.

[2] انظر أحاديثها في صحيح البخاري – كتاب الطب – كلٌّ في بابه، وانظر شروحها في فتح الباري حيث أورد اجتهادات مختلفة عنها.

[3] جريدة الشرق الأوسط العدد/٩٩٩١ – تاريخ ٢٠٠٦/٤/٦.

قلت: إن كنتَ مُصراً على المتابعة فهناك باب من أبواب الرحمة كثيراً ما تفاخر به الغرب في هذه الأيام، ليغطي على قسوته في غيره من مجالات الرحمة الإنسانية. وقد كان ﷺ يعلّمه الناسَ في مدرسته قبل أكثر من /١٤٠٠ عام/.

قال: وما هو هذا الباب؟.

قلت: إنه لا يختص بالرحمة ببني البشر.

قال: بِمَ يختص إذاً؟.

قلت: إنه يختص بالرحمة بالحيوان.

فقال متعجباً: الرحمة بالحيوان! إنا كنا نحسب أن جمعيات الرفق بالحيوان هي من خصائص الحضارة الغربية في العصر الحديث.

قلت: هل أنت جادٌّ في هذا؟

قال: كان يمكن أن أكون جادّاً، لولا أنني أرى الغربَ الذي يتورع اليوم عن إيذاء أو قتل هِرٍّ أو كلب، لا يتورع عن إبادة شعوب بأكملها من بني البشر، إن هو شمَّ رائحة النفط في أعماق أرضها، كما فعل في العراق! أو لمح بريق معدن ثمين داخل حدود دُوَلها، كما فعل في إفريقية!.

بل هو يعمل على إبادة سكان فلسطين الأصليين، ليسلبهم أرضهم ويعطيها للغرباء.. وما أَمْرُ إبادة الهنود الحمر في القارة الأمريكية عنا ببعيد!!

قلت: صدقتَ أيها الأب ستيفانو، وما أحراك أن تقول كلمة حق في وجه سلطان جائر.

وأردفت: إذاً بماذا تفسر العناية بحقوق الحيوان في الغرب الحديث، إلى جانب إهدار حقوق الإنسان الآخر؟

فتفكّر قليلاً، ثم قال: التفسير الوحيد لهذا التناقض، هو أن الغرب كغيره من سكان هذا العالم، فيه عنصر الخير، وفيه عنصر الشر. لكنَّ عنصر الشر اليوم في الغرب، متغلب على عنصر الخير. ولعل دعاة الرفق بالحيوان من الغربيين، يستطيعون

أن يكونوا أيضاً دعاةً إلى الرفق بالإنسان الآخر، وعندها يصبح عنصر الخير من القوة بحيث يستطيع أن يقول لعنصر الشر: لا.

* * *

قلت: وقبل حوالي /١٤٠٠ عام/ من وجود جمعيات الرفق بالحيوان في الغرب، كان رسول الله ﷺ يعلّم تلاميذه في مدرسته، كيف تكون الرحمة بالحيوانات.. وبخاصةٍ الحيوانات التي يستفيد الإنسان منها. سواء في الركوب والعمل، أو في الطعام، فيقول: « اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[١]. أي لِيَكُنْ تعاملكم معها تعامل إصلاح لا تعامل إفساد، وتعامل الإصلاح لا يكون إلا مع الرفق والرحمة.

قال: وكيف يتمّ تعامل الإصلاح مع هذه الحيوانات؟

قلت: أما الحيوانات المهيأة للركوب أو العمل، فقد علّم رسول الله ﷺ الناس أن يستخدموها فيما هُيِّئَتْ له بالطرق المعروفة.. وقد كان من عادة بعض الناس أن يستخدموا ظهورها إما للراحة، بالجلوس عليها وهي واقفة أو باركة، وإما لوقوف الخطباء على ظهورها ليراهم السامعون. وهي في كلتا الحالتين تستخدم في غير ما هيئت له، ففي الحالة الأولى استخدمتْ كراسي للراحة! وفي الحالة الثانية اتُّخذت منابر للخطابة! وهي وإن كانت صامتة لا تشكو، فإن النبي ﷺ كان يشعر بأنها تتأذى من هذه الأوضاع غير الطبيعية بالنسبة إليها. ولهذا قال: «اركبوا هذه الدواب سالمة، وايتدعوها – أي رفِّهوها – سالمة ولا تتخذوها كراسي»[٢].

وقال: «إياكم أن تتخذوا ظهور دوابكم منابر، فإن الله تعالى سخرها لكم لتُبلغكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، وجعل لكم الأرض، ففيها فاقضوا حاجاتكم»[٣].

---

[١] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢٣.

[٢] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢١.

[٣] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢٢.

*　　　*　　　*

فقال الأب ستيفانو: ما أجمل اللمسات الرحيمة! لكن ألا ترى معي أن من تمام الرحمة بالحيوان المعدِّ للركوب أو العمل أن نعتني بطعامه وشرابه، وأن لا نحمّله فوق طاقته؟.

قلت:بلى، وما كان ﷺ ليُغفل هذا من تعاليمه، فقد روي عنه أنه دخل ذات مرة بستاناً لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رآه الجمل حنَّ وجرجر وذرّفت عيناه، كأنه يشكو، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذِفراه – أي ما بين أذنيه – فسكتَ البعير. فقال رسول الله ﷺ: «من ربُّ — صاحب – هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكك الله إيّاها؟! فإنه شكا إلي أنك تُجيعه وتُدئبه – أي تُتعبه –»[1].

*　　　*　　　*

قال: لقد تمَّت الرحمة بالحيوانات المعدّة للركوب أو العمل، في مدرسة محمد. فكيف بالحيوانات المعدَّة للطعام؟

قلت: إن أهم مظهر للرحمة بهذا النوع من الحيوانات، بعد العناية بطعامها وشرابها، هو أن نرحمها عندما نذبحها.

قال: وكيف علّم محمد في مدرسته الرحمة بها عند الذبح؟

قلت: روي عنه ﷺ أنه «مرَّ على رجل واضعاً رجله على صفحة شاة وهو يحدُّ شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال له: أفلا قبل هذا – أي أفلا حددت شفرتك بعيداً عنها قبل أن تضجعها للذبح – أتريد أن تميتها مرتين»[2].

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم/٢٢٦٩ وقال عنه: صحيح – وهو في صحيح وضعيف سنن أبي داود برقم /٢٥٤٩ – وفي رياض الصالحين برقم /٩٦٧ – وفي السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢٠.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٤.

وقال ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحدّ أحدكم شفرته، فلْيُرِح ذبيحته»[1].

* * *

وأردفتُ: وبعد أن علّم ﷺ الناس كيفية الرحمة بالذبائح، بشرهم بثواب هذه الرحمة إن هم عملوا بها. فقد جاءه مرَّةً رجل فقال: يا رسول الله، إني لأذبح الشاة فأرحمها. قال: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»[2].

وأكَّد ﷺ على هذه الرحمة وعلى ثوابها فقال: «من رَحِم ولو ذبيحة عصفور، رحمه الله يوم القيامة»[3].

فقال الأب ستيفانو: لَشتَّان ما بين هذا الذَّبح الرحيم الذي علّمه محمد الناس في مدرسته، وبين ما يقوم به بعض الغربيين عندما يقتلون عجول البحر ضرباً بالعصي على رؤوسها حتى الموت! بلا رأفة ولا رحمة.

قلت: أتدري ما حكم لحوم مثل هذه الذبائح في مدرسة محمد؟

قال: ما حكمها؟

قلت: حكمها التحريم! فلا يجوز للمسلم الأكل من لحومها، عملاً بالآية القرآنية التي تقول: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[4]، فالموقوذة: هي المضروبة بالعصا حتى الموت.

قال: ليت جمعيات الرفق بالحيوان اليوم في الغرب، تتنبه لمثل هذا من أعمال القتل والذبح غير الرحيم للحيوانات.

* * *

---

[1] صحيح مسلم الحديث رقم/٣٦١٥.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢٦.

[3] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢٧.

[4] المائدة /٣.

قلت: وليس أمر الذبح فقط، بل كلُّ إساءة توجَّه إلى هذه الحيوانـــات، فتـــدل على القسوة وتنأى عن الرحمة، هي ممنوعة في مدرسته ﷺ، فقد مرّ ذات يوم علـــى حمار قد وُسِمَ – أي كُوِيَ – في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسَمه»[1].

ولاحَظَ أن بعض الناس يتخذون من بعض الحيوانات هدفاً يتـــدربون عليـــه في رمي السهام – أو غيرها – فنبّه إلى ما في هذا من قسوة على الحيوان وبعدٍ عن الرحمة به، ونهى عنه. فقد روى ابن عمر قال: «لَعَن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً»[2].

وروى سعيد بن جبير قال: «مرّ ابن عمر بنفرٍ قد نصبوا دجاجة يترامونها، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟! إن رسول الله ﷺ لَعَن من فعل هذا»[3].

* * *

قال الأب ستيفانو: وإذا لم تكن الحيوانات مهيئة للركوب أو العمل أو الطعام، فهل تنالها رحمة محمد؟

قلت: أجل، فقد روى أحد الصحابة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في ســـفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمرة – طائر صغير لونه أحمر – معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة فجعلت تفرش – أي ترفرف قريباً منهم – فجاء رسول الله ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها؟ ردوا إليها ولدها.

ورأى قرية نملٍ قد أحرقناها فقال: من حرق هذه؟. قلنا: نحن. قال: إنه لا ينبغـــي أن يعذب بالنار إلا ربّ النار»[4].

وأردفت: ولم يكن ﷺ يكتفي بملاحظة الواقع فقط في أمر هذه الحيوانات، بل كان يضرب للناس الأمثلة التي تبقى عالقة بالأذهان مهما طال الزمن.. فقد قال ذات

---

[1] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٢٢٩٣ وقال عنه: صحيح.

[2] صحيح وضعيف سنن النسائي الحديث رقم /٤٤٤١-٤٤٤٣/وقال عنه: صحيح.

[3] خرّجه الألباني في (غاية المرام) الحديث رقم /٣٨٢ وقال عنه: صحيح.

[4] انظر السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٢٥-٤٨٧.

مرة، مخوِّفاً من القسوة على هذه الحيوانات: « عُذّبت امرأة في هرّة سجنتها حتى ماتت، فدخلت النار. لا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[1].

وفي مرة أخرى ضرب للناس مثلاً آخر، فقال مرغباً الناس برحمة هذه الحيوانات: «بينما رجل يمشي في طريق، إذ اشتدّ عليه العطش، فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب وخرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش. فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي بلغ مني. فنزل البئر فملأ خفّه ثم أمسكه بفيه حتى رقي.. فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجراً؟ فقال: في كل كبدٍ رطبةٍ أجر»[2].

* * *

وأردفتُ: ولم تكن هذه الأمثال بعيدة عن ممارسته العملية ﷺ، فقد روت زوجته السيدة عائشة قالت: «كان رسول الله ﷺ يصغي – يُميل – الإناء للهرة حتى تشرب، ثم يتوضأ بفضلها»[3].

* * *

قال الأب ستيفانو بعد تفكُّرٍ قليل: إذاً صدقَتْ البريطانية الباحثة في الأديان (كارين أرمسترونغ) فيما قالته في كتابها (محمد).

قلت: وماذا قالت؟

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٨.

[2] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم /٢٩ وانظره في صحيح البخاري الحديث رقم /٥٥٥٠ وفي صحيح مسلم الحديث رقم /٤١٦٢.

[3] رواه الدارقطني – وقد أورد الألباني في (إرواء الغليل) حديث أبي قتادة مرفوعاً وفيه: «فجاءت هرة فأصغى لها الإناء حتى شربت وقال: إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات» الحديث رقم ١٧٣ وقال عنه: صحيح.

قال: لقد لَخَّصَتْ ما عرفَتْه عن رحمة محمد بالحيوان، بعد أن بيّنتْ جهل الغرب بمحمد الرحيم فقالت: « لقد دأبنا في الغرب على مرّ القرون، على أن نتصور محمداً في صورة الرجل الجهم والمحارب القاسي، والسياسي البارد. ولكنه كان رجلاً يتميز بأقصى درجات الشفقة ورقة المشاعر. فكان على سبيل المثال: محباً للحيوان، فإذا رأى قطة نائمة على بُردته، تركها وكره أن يقلقها. وقد قيل: إن أحد معايير تقدم المجتمع هو موقفه من الحيوان، وجميع الأديان تحثُّ الناس على حبّ العالَم الطبيعي واحترامه. وكان محمد يحاول تعليم المسلمين هذا السلوك.. وقد حظر محمد وَسمَ الحيوانات وَسماً يتسبب في إيلامها، وحظر تنظيم مسابقات اقتتال الحيوان»[1].

ثم تفكَّر الأب ستيفانو قليلاً قبل أن يقول: بعد كل ما حدثْتَني به، لقد تركْتَني أتساءل: هل هناك مخلوق لم تشمله رحمة الله على يد محمد وتلاميذ مدرسة محمد؟!

* * *

**خاتمة:**

قلت: والآن، بعد الذي حدثتك به.. لو سألك أحد الناس من غير المسلمين: هل كان محمد رحيماً؟. فبِمَ تجيبه؟.

فقال بجدٍّ وابتهاج: أجيبه:

- لم يكن محمد رحيماً فقط، بل هو حقيقٌ أن يكون الرحمةَ ذاتَها، مجسَّدةً في هيئة بَشَر.

فتنبَّهتُ عند سماعي هذا، وبادرتُه مُستثبِتاً: ماذا قلتَ؟.

قال: لم يكن محمد رحيماً فقط، بل هو حقيقٌ أن يكون الرحمةَ ذاتَها، مجسَّدةً في هيئة بَشَر.. أفي هذا خطأ؟.

---

[1] ص ٣٤٤.

قلت: بل هو الصواب عَيْنه، بل هو ما وصف به ﷺ نفسه إذ قال مخاطباً جميع البشر: «يا أيها الناس، إنما أنا رحمة مهداة»[1].

قال: أجل، صدق محمد، وإنَّ من يعرفه حقَّ المعرفة، يُخيَّل إليه كأنما قد صاغه الله سبحانه من عنصر الرحمة، ثم قدَّمه هديَّةً منه تعالى إلى البشر كافة.

* * *

قلت: وفي الختام، أهناك باب من أبواب الرحمة، غير ما ذكرتُ لك، تريد أن تطرقه أيها الأب ستيفانو؟.

قال: حسبي.. حسبي.. لقد سمعت منك ما فيه شفاءٌ لنفسٍ من يَنْشُد الحق في مظاهر رحمة محمد للبشر وغير البشر. ولست أدري بِمَ أُكافِئك رداً للجميل؟.

قلت: الأمر هيِّن، فقد علَّمنا رسول الله ﷺ الرحمة في كلِّ شيء، فإذا صَنع إنسان معروفاً إليك ، فيكفي أن تكون مكافأتُك له على صنيعه، عبارةً صغيرةً محبَّبة، خفيفةً في المؤونة، ثقيلة في الميزان. فإنها تُجزِئك.

قال: وما هي هذه العبارة؟

قلت: قال رسول الله ﷺ: «من صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ الثناء»[2].

فبادر الأب ستيفانو قائلاً: جزاك الله عني خيراً، وجزى الله محمداً خير الجزاء عن جميع البشر، بما علَّمهم في مدرسته من أبواب الرحمة.

وأردف قائلاً: ولا أكتمُك: إن الرحمة التي تحلّى بها محمد، زادت من حبي له وإعجابي به. ولسوف أُهديك نسخةً من بحثي بعد طباعته، ولسوف تجد في الإهداء الذي سأكتبه على الصفحة الأولى خبراً يسرُّك إن شاء الله..

قلت: هداك الله وسرَّك بكل ما أنت أهله.

---

[1] السلسلة الصحيحة للألباني الحديث رقم/٤٩٠ – وقد ورد تفسيره في كتب شروح الحديث تارةً بضمِّ ميم (مُهداة: من الهديَّة)، وتارةً بكسرها (مِهداة: من الهداية).

[2] صحيح الترغيب والترهيب للألباني الحديث رقم /٩٦٩ وقال عنه: صحيح.

* * *

ثم التَفتُّ إلى جاري (الأب نقولا) وقلت له: لقد طال صمتُك أيها الأب نقــولا، ألا شاركتنا؟

فقال: إني سامعٌ واعٍ، وإنَّ من يعرف حقيقة نبي المسلمين لا يملك إلا أن يحبه.

قلت: هداك الله، ثم أحبَّك، ثم هدى على يديك.

فقال وهو ينظر إلى ساعته: لقد أزف وقت الســحور عنــدكم، أتــأذن لنــا بالانصراف بعدما أطلنا عليك السهر هذه الليلة.

قلت: بل صنعتم إلي معروفاً بسهركم هذا، فجزاكم الله عني خيراً.

ثم نهض الضيفان متهيئَين للانصراف.. فشيَّعتُهُما إلى باب المنــزل، وودَّعتــهما.. ثم أغلقت الباب بهدوء، ثم أسرعتُ كي لا تَفوتني بَركَة السحور.

* * *

******انتهى******

************

# المصادر والمراجع

**- المصادر:**

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخاري – نسخة إلكترونية.

٣- صحيح مسلم – نسخة إلكترونية.

٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل – نسخة إلكترونية.

**- المراجع :**

كتب الحديث - كتب السيرة النبوية - كتب الدراسات الإسلامية - كتب الدراسات الاستشراقية - كتب المعاجم والتراجم - كتب التاريخ.

**أ- كتب الحديث:**

١- إرواء الغليل - ومختصره - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية*.

٢- تخريج أحاديث الإحياء - الحافظ العراقي – نسخة إلكترونية.

٣- رياض الصالحين -الإمام النووي- بتحقيق عبد العزيز رباح وأحمد الدقاق – دار الثقافة العربية ط٢ /١٤١٢هـ-١٩٩٢م/.

٤- سلسلة الأحاديث الصحيحة - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.

٥- السنن الكبرى – البيهقي – نسخة إلكترونية.

٦- صحيح الترغيب والترهيب - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.

٧- صحيح وضعيف الجامع الصغير - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.

٨- صحيح وضعيف سنن أبي داود - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.

٩- صحيح وضعيف سنن ابن ماجه - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.

* اعتمدت في كتب الحديث النبوي النسخة الإلكترونية لتوافرها عندي ولسهولة الرجوع إليها، وهي متطابقة في أرقام الأحاديث مع النسخ المطبوعة.

١٠- صحيح وضعيف سنن النسائي -ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.
١١- غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.
١٢- فتح الباري في شرح صحيح البخاري - ابن حجر العسقلاني – نسخة إلكترونية.
١٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - الهيثمي علي بن أبي بكر – نسخة إلكترونية.
١٤- المستدرك على الصحيحين - الحاكم النيسابوري – نسخة إلكترونية.
١٥- مشكاة المصابيح - الخطيب التبريزي- بتحقيق الألباني – نسخة إلكترونية.

**ب- كتب السيرة النبوية:**

١٦- دلائل النبوة - أبو نعيم الأصبهاني – تحقيق د. عبد المعطي قلعجي - دار الكتب العلمية، بيروت.
١٧- الروض الأُنف - أبو القاسم السهيلي – دار الفكر، دمشق.
١٨- السيرة النبوية - عبد الملك بن هشام- تحقيق السقا والأبياري وشلبي - دار ابن كثير، دمشق –ط٣ /١٩٢٦هـ-٢٠٠٥م/.
١٩- السيرة النبوية - أبو الحسن الندوي- تحقيق سيد عبد الماجد الغوري – دار ابن كثير، دمشق – ط١٢ /١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م/.
٢٠- السيرة النبوية الصحيحة - د.أكرم العمري – مكتبة العبيكان، الرياض /١٤١٦هـ-١٩٩٥م/.
٢١- صحيح السيرة النبوية - ناصر الدين الألباني – نسخة إلكترونية.
٢٢- الطبقات الكبرى - محمد بن سعد- تحقيق د. إحسان عباس.
٢٣- فقه السيرة - محمد الغزالي- بتخريج الألباني – نسخة إلكترونية.

٢٤- المواهب اللدنية - أحمد بن محمد القسطلاني — المكتب الإسلامي، بيروت /١٤١٢هـ-١٩٩٠م/.

## ج- كتب الدراسات الإسلامية:

٢٥- الإسلام والآخر - د. محمد عمارة — مكتبة الشروق، القاهرة /٢٠٠١م/.
٢٦- أوربا والإسلام - د. عبد الحليم محمود — دار الشعب، القاهرة /١٩٧٢م/.
٢٧- دفاع عن الحديث النبوي والسيرة - ناصر الدين الألباني — نسخة إلكترونية.
٢٨- دفاع عن محمد - د. عبد الرحمن بدوي — ترجمة كمال جاد الله — الدار العالمية للكتب، القاهرة /١٩٩٩م/.
٢٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - أبو الحسن الندوي — نسخة إلكترونية.
٣٠- ماذا يقول الغرب عن محمد - أحمد ديدات — ترجمة علي عثمان — المختار الإسلامي، القاهرة /١٩٩١م/ .
٣١- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - محمد حميد الله — دار النفائس، بيروت /٢٠٠١م/.
٣٢- محمد في الآداب العالمية المنصفة - محمد عثمان عثمان — دمشق /١٩٩٦م/.
٣٣- محمد في نظر فلاسفة الغرب - محمد فهمي عبد الوهاب — دار بوسلامة، تونس /١٩٨٥م/.
٣٤- المستشرقون والقرآن - محمد أمين حسن بني عامر — دار الأمل، إربد /٢٠٠٤م/.
٣٥- مقارنة الأديان - د. أحمد شلبي — دار النهضة المصرية، القاهرة — ط٧ /١٩٨٤م/.
٣٦- هذا ديننا - محمد الغزالي — دار الثقافة، الدوحة /١٩٨٨م/.

**د- كتب الدراسات الاستشراقية:**

٣٧- الأبطال وعبادة البطل - المستشرق توماس كارليل — ترجمة محمد السباعي — كتاب الهلال، القاهرة — العدد ٣٢٦ شباط/١٩٧٨م/.

٣٨- أخلاق وعادات المصريين - المستشرق إدوارد لين.

٣٩- الإسلام على مفترق الطرق - المستشرق ليوبولد فايس (محمد أسد) — ترجمة عمر فروخ — دار العلم للملايين، بيروت.

٤٠- الإسلام في مفترق الطرق - المستشرق دولاسي أوليري- لندن/١٩٢٣م/.

٤١- أمريكا دولة تحكمها العصابات - جاك ليب، لي مورتيمر- ترجمة حبيب الخولي (رسالة).

٤٢- تاريخ الأتراك - الشاعر الفرنسي (ألفونس دولامارتين) — باريس /١٨٥٤م/.

٤٣- تاريخ التشريع الإسلامي - المستشرقة بوجينا غيانا- دار الآفاق الجديدة/١٩٨٠م.

٤٤- تاريخ التطور الفكري الأوروبي - المستشرق جون دريبر- ط.لندن/١٨٧٥م.

٤٥- تاريخ فلاسفة المسلمين وفقهائهم - المستشرق غوستاف دوكا.

٤٦- تاريخ محمد - المستشرق وليم موير.

٤٧- تراث الإسلام - جوزيف شاخت وآخرون — عالم المعرفة، الكويت - العددان ٨ و١٢.

٤٨- ثلاثون عاماً من الإسلام - المستشرق ليون روش.

٤٩- حاضر الإسلام ومستقبله - المستشرق إدوارد مونتيه.

٥٠- حضارة العرب - المستشرق غوستاف لوبون — تعريب عادل زعيتر — دار إحياء الكتب العربية /١٩٥٦م/.

٥١- حياة محمد - المستشرق إميل درمنغم- تعريب زعيتر- دار العلم للملايين، بيروت.
٥٢- حياة وتعاليم محمد - المستشرقة آن بيزيت — دار مادرس للنشر /١٩٣٢م/.
٥٣- الخالدون المئة (أو المئة الأوائل) - المستشرق مايكل هارت — ترجمة خالد عيسى وأحمد سبانو — دار قتيبة، دمشق /١٩٨٤م/.
٥٤- الخمسون الذين كانوا أعظم شأناً في التاريخ - المستشرق أولف نيلسون.
٥٥- الدعوة إلى الإسلام - المستشرق توماس أرنولد — مكتبة النهضة المصرية، القاهرة /١٩٥٧م/.
٥٦- الرسول- حياة محمد - المستشرق ر. ف. بودلي — ترجمة فرج والسحار - مكتبة مصر، القاهرة — الطبعة الثانية.
٥٧- رمزية الصليب - المستشرق رينيه جينو.
٥٨- السفر إلى الشرق - الشاعر الفرنسي (الفونس دولامارتين).
٥٩- سياحة دينية - المستشرق الألماني القس ميشون.
٦٠- الشرق وعاداته - المستشرق صمويل زويمر.
٦١- العالم الإسلامي وقضاياه التاريخية - المستشرقة بيانكا سكارسيا — ترجمة سمير سعد — دار ابن خلدون، بيروت /١٩٨٤م/.
٦٢- العرب - المستشرق إدوار مونتيه.
٦٣- العرب - المستشرق جان ليك.
٦٤- العرب في التاريخ - المستشرق برنارد لويس — ترجمة نبيه فارس — دار العلم للملايين، بيروت — الطبعة الأولى /١٩٥٤م/.
٦٥- محمد (أو سيرة النبي محمد) - المستشرقة كارين أرمسترونغ - ترجمة د. فاطمة نصر، د. محمد عناني — كتاب سطور (١)، القاهرة /١٩٩٨م/.

٦٦- محمد رسول الله - المستشرق أتيين دينيه — ترجمة عبد الحليم محمود — دار الكتاب اللبناني، بيروت /١٩٧٩م/.

٦٧- محمد في مكة - المستشرق مونتغومري وات — ترجمة شعبان بركات — المكتبة العصرية، بيروت.

٦٨- محمد وخلفاؤه - المستشرق واشنطن إيرفينغ — ترجمة هاني نصري — المركز الثقافي العربي، بيروت /١٩٩٩م/.

٦٩- محمد والقرآن - المستشرق جون وانبورت.

٧٠- محمد والمحمدية - المستشرق بوزورث سميث - لندن /١٨٧٤م/.

٧١- من أعظم منك يا محمد — قصيدة للشاعر الفرنسي لامارتين — نشرها جريدة الشرق الأوسط — العدد/٩٩٩١/ — تاريخ ٦/٤/٢٠٠٦م.

* * *

**هـ- كتب المعاجم والتراجم:**

٧٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة - ابن الأثير علي بن محمد — نسخة إلكترونية.

٧٣- معجم البلدان - ياقوت الحموي — نسخة إلكترونية.

٧٤- معجم متن اللغة — أحمد رضا — دار مكتبة الحياة، بيروت /١٣٧٩هـ-١٩٦٠م/.

٧٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي — كتاب الشعب، القاهرة.

* * *

**و–كتب التاريخ:**

٧٦- الكامل في التاريخ - ابن الأثير علي بن محمد – نسخة إلكترونية.

٧٧- المختصر في تاريخ البشر - أبو الفداء إسماعيل بن علي – نسخة إلكترونية.

*^**^**^**^**^**^**

*^**^**

# الفِهْرِس